آخرة المماليك

ابن زنبل الرمال

و اقعة السلطان الغوري

خروج السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري من مصر لملاقاة السلطان سليم بمرج دابق

وكان خروجه من مصر يوم السبت سادس عشر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وتسعمائة (1515م) وكان أمراء دولته في ذلك العهد، أولهم سودون العجمى أمير كبير وأركماش أمير سلاح، وأمير مجلس وسيدي محمد بن السلطان الغورى، وأمير أخور كبير وسودون داوودى رأس نوبة النواب وأنس باى حاجب الحجاب، وقانصوه أبن السلطان جركس، والأمير تقطباى نائب القلعة، والأمير قانصوه أبن سلطان كسرت، والأمير طومان باى دوادار كبير، والأمير تنم الزردكاش، والأمير جان بلاط أبو ترسين، والأمير تان بك الخازندار، والأمير يزبك المكحل، والأمير رزمة الناشف، والأمير أبرك رأس الجلبان، والأمير أقباى الطويل، والأمير بيبرس أبن عم السلطان، والأمير كرت بيك الوالي وأبو المفاخر والمعالي، والأمير قانصوه أبو سنة، والأمير قانصوه رجله سيدو از وكان هؤلاء الأربعة والعشرون أصحاب الطبلخانات في مصر، لهم الأمر والنهي والحكم مثل السلطان، وكان كرت بيك الوالى أعظمهم حرمة الشجاعته وفروسيته ومخاصمته الشجعان والأبطال في جهة الميدان دگر نواب البلاد التي كانت في حكمهم وسيأتى طرف مما كانوا عليه، رحمهم الله تعالى

نواب البلاد التي كانت في حكمهم

فأول النواب نائب قطيا كان قانصوه رجله، وأما القدس الشريف وغيره والرملة وما هناك من الضياع فكان المتولى على جميع ذلك دولتباى، وأما صفد وطرابلس والشام وبيروت وصيداً وأعمالهم فكان النائب عليهم الأمير أتمراز الأشرفى، وأما دمشق الشام فكان نائبها سيباى، وأما حمص فكان نائبها أصلان بن بداق، وأما حماة فكان نائبها أقبردي الغزالي لا لقاه الله خيرا . وأما حلب فكان نائبها الأمير خاير بك . وأما البيرة فكان نائبها جان بردى وعنتاب كان نائبها يونس بن أقبية، وأما قلعة الروم كان نائبها أبو زيد، وكانت أونه وجميع بلاد مرعش و أعمالها إلى ديار بكر بحكم على دولتباي، وإلى حين ينتهي إلى جنب الروم بحكم محمود بن رمضان وكان على دولات يحمل المال إلى مصر من جميع حكمه و بلاده، وهو الذي كان سبب الفتنة بين السلطان سليم وبين الغورى، وفابريك أيضا، إلى أن حصل ما حصل من القتل بين الفريقين، وأن ربك يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون أن الأرض الله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين وأما الكشاف فكانت أسيوط مع برسباى الأشرفى، وموف كاشفها قانصوه العادلي، والفيوم والبهنسا كاشفهما جانم الأشرفى، ودمنهور مع يونس البدوي، والمحلة ميع أطاس وكان مشهورا بالظلم وأما الثغور المحروسة فكان نائب الأسكندرية قضياً بردى، ونائب دمياط على باى وأما مشايخ العربان في الصعيد الأعلى، فكان أبن عمر الأمير علي في جرجا، وأولاد الأحدب في الشرق، وشيخ غزاله حماد بن خبير في الجيزة والأمير حجازى بن ذكر نواب البلاد التي كانت في حكمهم بغداد بالمنوفية، وشيخ البحيرة كان الجويلي , وأما الغربية فكان من نواحي سنهور حسن بن مرعى وكانوا على هذا الترتيب في زمن الفوري، رحمة الله عليهم أجمعين وكان في الشرقية أحمد بن بقر، وكان قليل الخير، سيرته سيئة ونرجع الى خروج الغورى من مصر فلما وصل الى غزة قام بها ثلاثة أيام، فشكت الرعايا السلطان من نائب غزة، فعزله عنها، ورسم عليه وعنفه على فعله وظلمه، وزجره غاية الزجر، و بعد ذلك رده إليها لكونه أبن عمه فورد على السلطان مكاتبة، وهو مقيم بغزة، من عند أسياى نائب الشام، يذكر فيها الذي يعرضه المملوك

على المسامع المالية، أعلاها الله تعالى، وأدامها . أن العبد سمع بأن السلطان يريد السفر إلى قتال أبن عثمان وأن المملوك يقوم بهذا الأمر، ويكون السلطان مقيماً بمصر،

ويمد المملوك بالعساكر المنصورة والذي يعلم به مولانا السلطان أن خاير بك ملاحى تراسيم

ويعنى أيضا علينا، ومكاتيبه لا تنقطع من عند أبن عثمان في كل حنين . فرد عليه السلطان: ها نحن قد جئناهم بأنفسنا ثم أمر بالرحيل بالجيوش والعساكر، وهم يموجون كالبحر الزاخر، والسحاب الماطر، فرسانا كالعقبان الكواسر، ولكن إذا نزل القضاء عمى البصر، فألقي الله تعالى فيهم الفتنة، فكان كل من الأعيان يتمنى هلاك السلطان حتى يكون هو السلطان، فبهذا الموجب هلكوا أجمعين، ويبشون على نياتهم ومن غريب صنع الله تعالى أن السلطان الثوري كان له رمال حاذق، فكان كل حين يقوله له السلطان: « أنظر إلى من يلي الحكم بعدى »، فيقول: « حرف السين » فكان السلطان يعتقد أنه ميباى وكان كلما كتب سيباي للسلطان بما يفعله خاير بك نائب حلب من المكاتبات للسلطان سليم بأنه معه، وأنه ملاحي على أبناء جنسه، ويحرضه على المجيء إلى أخذ مصر من البراكسة، والسلطان الغورى لا يقبل من سيباى نصيحة حتى نفذ قضاء الله تعالى وحكمه وقدرته، وكان ما كان ولم يتمكن سيباى من ملاقاة السلطان إلا على سعسع وهي قرية من قرى الشام وحضر سيباى قدام السلطان، وقدم تقدمة عظيمة، لها قدر وقيمة . فشكره السلطان على فعله شكرا زائداً بعد أن خلع عليه خلعة عظيمة ولم يخلع على أحد من النواب غيره وكل ذلك والسلطان معتقد أن الخيانة إنما هي من سيباى، وما قصده ألا أخذ السلطنة كما ذكر المنجم الرمال على حرف السين، ولا يظن ويخطر في فكره، أن السلطان سليمان يقدر يدخل أرض مصر أبداً لما يعلم من شجاعة الجر اكسة، ولا يسكنوا أحدا من أخذ بلادهم، وما دروا أن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة وكان السلطان الغوري يعلم أن سيباى بال من الأبطال، لا يخطر الموت على باله، فأنه كان فارساً مناعة، وبطلاً شجاعاً، ذا عزم شديد، و يأس مديد . فكان السلطان لا يحسب إلا حسابه وأما خاير بك فأنه لم يكن السلطان يحسب

له حسابا ما يعلم من جبانته، وعدم شجاعته، فأخذه من لا يكترثه وكان سيباى من ماليك السلطان قايتباي، وكان رجلاً يعد برجال، وهو الذي عمر المدرسة التي بدمشق،

المعروفة بمدرسة سيباى وهي إذا طلعت من سويقة باب الجابية وأنت طالب إلى دار السعادة تكون على يسارك ووقف لها الأوقاف، ورتب لها الخيرات، رحمة الله عليه قال الناقل،

وهو الشيخ أحمد بن زنبل الرمال المحلي الجامع السيرة الجراكدة، وما وقع بينهم مع السلطان سليم بن عثمان، فأن السلطان سليم كان له أخ أكبر منه يسمى الساعلان أحمد وكان حاكم برصه وكان أخوه قورقود حاكم المغنيسا، والسلطان سليم قبل أن يتسلطن كان حاكم طرابزان، ولكنه كان ذا همة في طلب الملك والرياسة على أخوته، فألهمه الله تعالى

زواج أبنة ملك التتار خان ليكون ظهراً له، فتزوجها . ثم تجره بعد ذلك لأخذ الملك من أبيه لما سمع من الجواسيس الذين كانوا يأتونه بالأخبار بأن أباه السلطان بايزيد ضعيف على موت، وأنه أرسل لولده أحمد يحضره ليقلده الملك من بعله فخاف أحمد من أخيه سليم لما يعلم من طلبة الملك لنفسه، فتأخر عن المجيء فجرد سليم العساكر على أبيه فلما سمع أبوه ذلك أخذته الغيرة، وأمر بالخروج لملاقاته فخرجت العساكر، ووقع الحرب بين الفريقين، فكانت الكسرة على السلطان سليم . فأنهزم، وأخذت زردخانته بجملتها، فهرب الى الكوفة فدخل عند رجل، يقال له، كمال أغا، وهو دزدار القلعة، فأضافه ومكث عنده مدة أيام . فشكا له السلطان سليم مما جرى له، وما ذهب منه من المال والرجال وهو متحير في أمره، وقد قصد أخذ الملك من أبيه قبل أن يعطيه لأخيه أحمد، فلم يصح له ذلك فقال له كمال أغا: عندنا من مال أبيك شيء كثير متحصل، وكنا نريد أن ترسله له، فخده وتقو به ففعل كما قال له كمال أغا، وجمع له عسكرا أكثر من وكان السلطان سليم لا يتوقف في جمع العسكر، لا على رومى ولا على عجمي، بل كل من أختار أن يكون من عسكره قبله، و يعطيه الجامعية ويجعله من عسكره فجمع عسكرا كثيرا، وجرد على أبيه ثانيا، يريد القسطنطينية وكانت عساكرأبيه

كلهم مالوا الى السلطان سليم لما يعلمون من علو همته وأما أبوه السلطان بايزيد . فأنه كان رجلاً مباركاً من أولياء الله تعالى، لا يحب العظمة ولا التجبر، وكان رأس تعد كره أغاة اليكنجرية، يونس آغا فلما وصل الخبر إلى السلطان بايزيد بأن ولدك سليم جرد عليك ثانيا أمر العسكر بالخروج القتال ولده، فلم يطعه أحد من عسكره، فجاء السلطان سليم إلى أن وصل إلى مدفن أبي أيوب الأنصاري،

رضي الله عنه فدخل الوزير الأعظم، وكان إذ ذاك فرهاد باشا على السلطان بايزيد، وأخبره بذلك، وأعلمه بأن العساكر كلها مالت الى السلطان سليم وبغضوك لما يعلمون من تعففك والعصمة الملوكية، وأنت تعرف ما يترتب على ذلك فاميه السلطان بايزيد أن يقول لهم: السلطان يرلى عليكم ولده أحمد فأبوا ذلك، وقالوا: ما تريد إلا سليما، كلمة واحدة نخرج السلطان بايز يد، يريد الكوفة، بماله وعياله، وأن يقيم هناك الى أن يموت ودخل السلطان سليم إلى القسطنطينية، فجلس على تخت الملك، فلم يسافر أبوه إلا يومين، ومات رحمة الله عليه في سنة 918، وأما أخوه السلطان أحمد فأنه لما أرسل خلفه ليقلده الملك جاء إلى أن وصل أسكدار، فلم يجسر أن يدخل القسطنطينية خوفا من أخيه ومن العسكر، لأنهم على غرض السلطان سليم فلما تولى السلطان سليم أرسل لأخيه أحمد خلعة ورده الى مكانه، وأيضا أول خلية إلى أخيه قورقود إلى مملكته، وهي مغنيسيا،

پير أناضول، وأستقر هو في ثم أرسل خلف كمال أغا الذي كان بالكوفة، وجعله أغا اليكتجرية، و يونس أغا جعله وزيراً، وجعل فرهاد باشا باثة روم أيلى، ثم أمر بقتل اخوته، وأستقل هو في الملك فهرب أخوه قورقود إلى مصر، وأستجار بالغورى، فأجاره، فأرسل السلطان سليم يطلبه من الغورى، فأبى أن يمكنه منه، فاشتدت العداوة بين الغورى و بينه حتى وقع ما وقع قال الراري: ومما وقع بينهما من شدة العداوة أن السلطان سليم لما غزا على شاه اسماعيل سلطان العجم، وجاء بالعساكر من على البيرة، وكان نائبها يسمي علاء الدولة من طرف جناب السلطان الغورى، فأمر علاء الدين أهل موعش، ألا يبيعوا على عسكر السلطان سليم شيئاً مطلقاً من المأكل ولا من

غيره فمات أكثر الدواب والناس من شدة الغلاء، وكان هذا سبب الحرب بين الغورى و بين السلطان سليم وحصن علاء الدين البلاد كلها و الحضارات والأبراج، فلما جرى للسلطان سليم ذلك عرض على وزرائه ذلك، وحصل له من الغم ما لا مزيد عليه وكان السلطان سليم حاد المرارة صعب الخلق، فأراد أن يأمر العسكر بالحملة على تلك النواحى، ويحاصر مرعش، فأشار وزراؤه عليه أن يرسل يعلم بذلك الغوريه فأمر بكتابة مرسوم إلى ملك مصر قانصوه الغورى يخبره بما فعل علاء الدولة، فأجاب الغورى بأن علام الدولة عاصي أمري،

فأن قدرت عليه فأقتله وخلع عليه قصاده وأرسلهم ثم كتب الغوري مرسوماً وأرسله خفية لعلاء الدولة يشكره على ما فعل، ويغريه على قتال السلطان سليم ولا يمكنه من شيء أبداً . وكان قصد الغورى إلقاء الفتنة بين الاثنين رجاء أن يقتل أحدهما أو كلاهما، فيكتفي شرهما، فأنه كان يعرف شدة بأس كل منهما:فقوى قلب علاء الدولة على قتال السلطان سليم وأما السلطان سليم لما قرأ جواب الغورى علم بقراسته أنه خدمة له، فتحملت نفسيه من الغورى غاية التحمل فكان ذلك سببا لأثارة الفتنة بينهما حتى وقع ما وقع، كما هو المشهور ثم سافر السلطان سليم الى ملاقاة شاه إسماعيل ووقع الإتفاق بينهما بأن يبطل النار، ويقاتل بالسيف والعود فلم يثبت السلطان سليم غير ساعة، وولي عسكره منهزما أن الروم لا قدرة لهم على ملاقاة الفرس من غير نار، فعند ذلك أمر أغا اليكنجرية أن يرموا بالنار، فما كان إلا ساعة وإنهزم شاه إسماعيل، فان النار لا يطيقها أحد فأخذ السلطان سليم ما وجد في أوطاق العجم وأنشنى راجعا منصورا يريد قتال علاء الدولة وأما علاء الدولة فأنه جمع جيوشا كثيرة، وإلتقى الجمعان، وكان مع السلطان سليم خان بن شهوار، وكان شهوار هو المنك، والحاكم على تلك الديار، وهو أخو علاء الدولة .

فلما قبض على شهوار بالحيل التي عملت عليه شنق على باب زويلة بمصر في زمن قايتباى على بن الأمير يشبك الدوادار كبير، والقصة مشهورة . ثم أخذ علاء الدولة الحكم بعده وكان الشهوار ولد أكبر أولاده، فهرب الى السلطان سليم، فمازال عنده حتى

وقع هذا الحرب مع علاء الدولة، وأصطف الفريقان للقتال، وخرج أبن شهوار الى الميدان بين الجمحين بإذن من السلطان سليم، وقال: من عرفتي فلقد كفى، ومن لم يعرفني فأنا أبن شاه سوار - أين من ربى في أنعام أبي ؟ أين المحبون لي ولوالدي ؟ فليأتوا تحت سنجق من حماتي من عدوى، ولا بد لكل أنسان من يحبه و يبغضه . فأرتج عسكر علاء الدين، وأفترق منه بعضه، فمن كان يبغض علاء الدولة مالوا إلى أبن شهوار، فما تم غير ساعة حتى عقل علاء الدولة وغالب أولاده، وقطعت رو بهم، وجاءوا الى السلطان سليم، فأرسل يهسم إلى الغورى، فلما رآهم أحس قلبه بزوال ملكه لا يعلم من أختلاف عسكره عليه، كما وقع لعلاء الدولة، فأن الملك ليس هو ملكا إلا بالعسكر،

فإذا أنحرف عليه عسكره ضاع ملكه ثم أن السلطان سليم طمعت آماله في أخذ مصر،

ثم توجه إلى أدرنه ثم أستشار مع الوزير الأعظم، وهو أحمد باشا به هرسك، و بعده بيرى باشا فقال أبن هوسك للسلطان سليم، نحن تصادمنا مع عسكر مصر في زمن أبيك، وكنت أنا باش العسكر وكسرونا أشد كسرة، وقبضوا على ودخلت مصر أسيراً حتى وقفت بين يدي السلطان قايتباي، فمن على بإطلاق، وعفا عني، انا الله عنه، وقد حلفت له ألا أسحب في وجه القبيلة سيقاً أبدا، و صدقه على ذلك بيرى پاشا ثم بعد ثلاثة أيام أمر السلطان سليم بعزل الأثنين . ثم السيار قاصداً عمد كر مصر، فلما وصل إلى مدينة زململى أقام ينتظر الأخبار، فلم يأته أحد فأمر السلطان سليم بإرسال قاض إلى الغورى، وكان أسم القاضي زبرك زاده، وكان أعرج، فمازال حتى وصل إلى حلب، فرأى أوطاق الغوري خالياً من العسكر، ما فيه إلا نحو ألف أو ألفين، لأنهم كانوا كلهم دخلوا إلى مدينة حلب، وأخرجوا الناس من بيوتهم، وسبوا حريمهم وأولادهم، وآذوهم الأذى البليغ، وكان ذلك سبباً لقيام أهل حلب مع السلطان سليم على الجراكسة، لشدة ما حل بهم من الضرر منهم فلما بلغ الغورى بأنه جاء قاصد من عند السلطان سليم أذن له فتمثل بين يديه، وتأدب غاية الأدب فرحب به، وسأله عن السلطان سليم: فقال له القاضي: هذا ولدك، وتحت نظرك فقال له النوري: لولا أنه

مثل ولدي ما جئت من مصر إلى هنا بأهل العلم جميعاً حتى تصلح بينه و بين إسماعيل ثم أجزل عطاءه وصرفه ثم أمر الغورى بالخروج إلى الحرب، فخرج جميع العسكر و أودعوا جميع أموالهم عند أهل حلب بعد أن كدروا عليهم غاية التكدير، وآذوهم غاية الأذى فلما خرجوا من عندهم دعا عليهم الكبير والصغير والغني والفقير لما حصل لهم من ضررهم فلما أستقر الغورى في أوطاقه أمر بإرسال قاصد للسلطان سليم، فشاور أكابر دولته، فأقتضي رأيهم أن يرسل رجلان من أهل العلم والدين ليتكلم بينهما بالمعروف رجاءً لحقن دماء المسلمين فلم يفعل، وأمر باحضار الأمير مغلباى دوادار، وكان رجلاً فاضلا قادرا على رد الأجوبة وإقامة الحجة فقال له القورى: جهز نفسك، وأخرج، أكشف لنا خبر أهل الرم و ما هم عليه، وأعط هذه المكاتبة الى ملكهم ثم أمر عشرة من خيار العسكر بالتوجه مع مغلباى إنى عسكر السلطان سليم،

وهم ملبسون بالملابس الفاخرة، كل من رآهم يتعجب في خلقه وحسن خيلهم وهندامهم،

وهم كالعرائس وأصطلقوا صفاً واحداً فلما دخلوا ووقفوا بين يدي السلطان سليم من غير أطالة، نظر إليهم ملياً وأمتلأ من الغيظ ثم قال للأمير مغلباى: يا مغلباي، أستاذك ما كان عنده رجل من أهل العلم يرسله لنا .. ؟! وإنما أرسلك بهؤلاء العشرة بير عب بهم قلوب عسكرى ويخوفهم برؤية أجناده، ولكن أنا أكيده بمكيدة أعظم من مكيدته ثم أمر برمى رقبة مغلباي وجماعته وعيط من صميم قلبه بجلاده فأرتجفت قلوب الحاضرين لذلك فقام الوزير يونس باشا، وقبل الأرض بين يديه، وقال: الرسول لا يقتل، وليس له ذنب فقال: لابد من ذلك فقال الوزير: فأن كان ولابد فأبق على كبيرهم مغلباى فأمر بحبسه، ورمى برقبة العشرة قدام أوطاقه، واحداً بعد واحد، وهو ينظر إليهم وحبسن مغلياى بقلعة وملطو يومين ثم أحضره وحلق ذقنه، وألبسه طرطوراً، وركبه على حمار أعرج معقور وقال له: قل لأستاذك: يجتهد جهده، وهأنا حضرت إليه كالبرق الخاطف والرعد القاصف ولم يقرأ مكاتيب الفوري لشدة غيظه، لأنه لما رأى مغلباى والعشرة الملبسين بالحديد المانع فهم بالفراسة أنهما أرسل هؤلاء إلا ليخوف

عسكره من شدة بأسهم وفرسانهم فلما رجع مغلباى للنوري على هذه الصفة عسر عليهم ذلك، وأقامته نفوسهم على قتال السلطان سليم بعد ما كانوا يظنون أنهم إنما جاءوا للصلح بين شاه إسماعيل والسلطان ثم أمر الغورى بأن يخرج العسكر من مدينة حلب الى أو طاقة ويتهيأوا للقتال وأمر الأمير كرتباى الوالي بأن يكشف خبر السلطان سليم وعسكره ويرجع على الفور ليمشي عليه، ويبادر الحرب فلما وصل كرتباي الى قيصرية وجد أهلها قد قتلوا أبوابها وتأهبوا لقتال أهل مصر لما بلغهم ما فعلوه في مدينة حلب وأهلها من أخراجهم من أماكنهم ونهب أموالهم، وغصب أبنائهم وبناتهم ثم وجدوا يونس پاشا نائب عنتاب عزل حريمه وماله وهو معول على الرحيل الى السلطان سليم، وقد قلب على أبناء جنسيه ومال مع الروم فرجع كرتباى الوالى، وأخبره أن قيصيرية و عنتاب عصوا علينا وأرادوا قتالنا، ومالوا مع السلطان سليم، وجاءنا الخبر بأن طلائع عسكره قد أقبلت، فلما تحققنا ذلك عطفنا راجعين فارنج عسكر مصر لذلك، ووقع فيهم الخلل فعند ذلك أنتبه الغورى من ساعته، وجمع الأمراء والأعيان،

وتحالفوا على أن لا أحد منهم يخون صاحبه، ويكونون على قلب رجل واحد، ويقاتلون عدوهم بعد أن كان غالب المسكر ما يظن إلا الصلح بين السلطان سليم و بين شاه إسماعيل وأما يونس باشا نائب عنتاب فأنه ندم على فعله مع كرتباى الوالى، وقال في نفسه: ربما تكون النصرة لهم، فلا أمن على نفسي، ولكن أجعل لي معهم وجها وركب من ساعته إلى أن تمثل بين يدي الغورى، وزعم أن السلطان سليم قبض عليه، وأنه هرب منه، وجاء إلى مولانا السلطان مساعداً له على عدوه فلم تنطل حيلته على السلطان ثم أمر بتوسيطه في الوقت والساعة فوسط الأمراء والأعيان كلهم مجتمعون فقام من بينهم الأمير سيباي نائب الشام وقبض على خاير بك نائب حلب، وجره من طوقه بين يدي السلطان النورى وقال: يا مولانا السلطان، إذا أردت أن الله ينصرك على عدوك فأقتل هذا الخائن وكان خاير بك في يده كالشاة بين يدي السبع، و هو يجره فقام الأمير جان بردى الغزالي وقال: يا مولانا السلطان، لا تفتن العسكر وتبدأ في قتال بعضهم بعضاً، وتذهب أخباركم إلى عدوكم، ويزداد طمعه فيكم، وتضعف شوكتكم والرأي لكم و تأخر في مكانه وهذه مكيدة من الغزالى، وإلا كان خاير بك قد هلك، ولكن اذا أراد الله

تعالى بأمر بلغه، والحي ما له قاتل فأمرهم السلطان بأن يتحالفوا ثانياً، وألا يخون منهم أحد والخائن يخونه الله تعالى، وعليه لعنة الله ثم أصر السلطان أن ينادي في حلب بالرحيل منها بالمعسكر القتال السلطان سليم، وأن يتأهب كل أحد و يستفيق النفسيه وكان ذلك في يوم الجمعة الثاني من رجب سنة أثنتين وعشرين وتسعمائة وكان له مواكب حتى رجت الأرض، وليس الخبر كالميان وكان الجلبان ثلاثة عشر ألف مملوك، كلهم مشتروات الغوريا، ولا واحد منهم إلا ويعرف سائر أنواع العرب والفروسية، فإنه كان مجتهداً في تعليم الجلبان، وكان قصده أن ينشىء له عسكراً من مماليكه مشترواته، ويقطع القرانصة، وهم مماليك الملوك الذين قبله، وكان يحسب حسابهم خوفاً من أن يمكروا به كما فعلوا بمن قبله، وكان آخذاً حذره، ولكن الحذر لا ينفع من القدر، والقاعدة المشهورة، من طلب جله فاته كله وكان معه الأربعة الأئمة من المذاهب الأربعة، وخليفة سيدي أحمد البدوي، وخليفة سيدي إبراهيم الدسوقي وخليفة سيدي أحمد الرفاعي،

وخليفة سيدي عبد القادرالجيلاني وكان معه المؤذنون الدواخل والوعاظ، وكان له نظام عظيم، فأنخرم ذلك النظام،

وأنتكست تلك الأعلام، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ولا التقى الجمعان في مسج دابق، وكان في أول الجيش أمير كبير سودون العجمي، وأركمام أمير سلاح، أواخشيباي أصير مجلس، وكان أمير أخور سيدي محمد بن السلطان الغورى، أقام في حلب بأمر والده، وكذلك إدارة جانم الأشرفي، ومن كان في مقدمة العسكر سودون الدوادارى رأس نوبة النواب، حاجب الحجاب، وقانصوه أبن السلطان جركس، وكان من الأبطال، وتنمر الوردگاش، وجانبلاط أبو ترسين، وتانى بك الغاز ندار، وأزبك المكحل، و بيبرس أبن عم السلطان و باتوا تلك الليلة على غير حرب، ولكن لم يهنأ لأحد

منهم نوم من مكر بعضهم لبعض وكان إبتداء الحرب يوم الأحد المبارك الثالث والعشرين

من رجب سنة 921

فلما أتضح النهار ركبوا كالبحر الزاخر، فإذا صفوف

الثانية قد بانت صفا بعد صف خارجاً من الوصف،

والأعلام الملونة من اليسار والميمنة وهم سائرون كالبحر

السيال والمحيط الميال وقد رتبوا الصف من كل طرف

فاذا طير من الطرف الكبير الذي فيه السلطان سليم مدفع كبير كالبرق الخاطف والرعد القاصف تزلزلت منه تلك الصحراء، وطلع دخان كالجبال الزرقاء فكان أول من بادر العثمانية بالحرب من طائفة الجراكسة أصلان بن بدراق، نائب حمص، أخد قنطاريته بيده وأطلق عنان جواده وصار يعلمن في الفرسان يميناً وشمالاً فلما رأى الأمراء فعل أصلان بن بداق في حملته أخذتهم الحمية فحمل الأمير سيباى نائب الشام، ثم حمل أمير كبير سودون العجمي ومماليكه خلفه نحو الألف ملبسين ثم حمل الأمير جانبلاط أبو ترساين،

ثم الأمير علان دوادار نانى ثم حمل قانصوه أبن السلطان جركس،

ثم حمل كرتباى الوالى وكان فارس المنايا والموت الزؤام، فلله دوره من شجاع، كان فريد عمره !٠ ثم حمل تنمر الزردگاش وبخشهاى آمير مجلس والأمير أنس باى حاجب العجاب، والأمير قنصوه كرت والأمير تاني بك الناز ندار، والأمير تاني بك النجمي، والأمير بيبرس أبن عم السلطان الغورى، والأمير قانصوه أبو سنة، والأمير الفاجر، والأمير خاير بك المعمار، والأمير جان بردى نائب بيروت، والأمير جانبردى الغزالي، أرخاير بك تائب حلب، وكلاهما كان رأس المتعصبين على الغورى، والأمير تمراز نائب طرابلس وحملوا جملتهم حملة واحدة، وصادموا الروم ومالوا في القتال، والروم الآخرون لاقوهم كالأسد الدخال قال الشيخ أحمد بن زنبل المحلى: ولم نر في التواريخ القديمة والحديثة وقعة مثل هذه الوقعة ولا أجتمع فيها مثل هذين العسكرين ولا أكثر عدداً قال: ولم يقاتل في هذا اليوم من الجراكسة أكثر من ألفي فارس وهم الأمراء الذين قدمنا ذكرهم وأتباعهم وأما جلبان الغورى الذين هم مشترواته، فلم يتحركوا من مواد معهم، ولم يهزوا رمحا،

ولا جبذوا سيفاً وسبب ذلك أن الله تعائي لما أراد أزالة دولتهم أوقع فيهم الخلف لأمر يقضيه وحكم يمضية وعلى ما قيل، أن السلطان الغورى أمر بأن أول مرة يخرج للحرب القرانصبة لكونهم أعرف بالحرب من الجلبان، وكان قصده أن ينقطع القرانصة ليكتفي شرهم ويصفو له الوقت فأنه كان يحسب حسابهم خوفا من مكرهم، فأمر بتقديمهم للحرب، وأخر جلبانه . فعلموا مكره لما رأوه واقفاً هو و جلبانه، لم يتحرك منهم أحد من

موضعه، فتغيرت نياتهم عليه، وقالوا له: نحن نقاتل بأنفسنا مع النار

وأنت واقف تنظر إلينا كالعين الشامتة ما تأمر أحدا من مماليكك يخرج للميدان فكان العسكر كله مختلفا في بعضه، مفسود النية ليس لهم رأي يرجعون إليه، ولا تدبير يقفون عليه، بل كل من تكلم كلا ما يقول الأخر بضده، فمن ذلك أنخرط نظامهم:وأما الأمراء الذين تقدم ذكرهم نحو الألقين، هم ومنئ يلوذ بهم، أعتمدوا على الله تعالى في حملاتهم، وأصقوا نياتهم، وصدموا الروم،

وضرب الروم بالمدافع والبندقيات حتى صار النهار كالليل الحالك من كثرة الدخان والغبار من حوافر الخيل،

لأنهم كانوا يقاتلون على قلب رجل واحد ونيات متفقة، ليس لأحد منهم في قلبه غل ولا مكر ولا حسد لأحد، وهذا أحسن ما يكون لمن يريد النصير ولقد أجاد القائل: إذا أراد الله بقوم خيراً وفق بينهم وإذا أراد بقوم شراً فتنهم، وأوقع الخلف بينهم أو من أعجب ما يكون من المجب، أن هؤلاء القوم القريبين من الألفي فارس المتقدم ذكرهم من الجراكسة يقاتلون قتال الموت في نحو مائة وخمسين ألفاً من الروم والترك ما بين ألوف مشاة، ومثلهم خيالة من عسكر الروم، ثم حطوا عليهم حطة واحدة فبينما هم كذلك إلا والسلطان سليم رمح حصانه من قلب الصف الكبير حتى وصل إلى الصف الوسطاني، وفي أيده سيف عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وصباح على عسكره: هكذا تعار كون قدامي مع عدوى ؟! وعيط على الباشات فلما نظر الروم إلى ذلك ردوا على الجراكسة كالبحر إذا سأل بعرض الوادي، فتراجع الجميع وأطلقوا المدافع والبندقيات، وحملوا على الجراكسة والعربان والمشاة مثل القطر في الثرى وصار النهار

عليهم مثل القيامة الكبري وكان يجيء كل مدفع على نحو خمسين أو ستين أو مائة نفس فصارت تلك الصحراء كالمجزرة من الدماء ومازال الروم والسلطان سليم سائرين حتى جاءوا الى صف الغورى، فرجع خاير بك والغزالي مع من أنهزم من الجراكسة حتى وطاق الغورى، ونادوا بأعلى أصواتهم:والفرار، الفرار، فأن السلطان سليم أحاط بكم، وقتل الغورى، والكسرة علينا . وإننى طالباً حلب فتبعه الجلبان وتشتت العساكر، وظنوا أن السلطان قتل كما قال خاير بك، وإنما فعل ذلك بغضا ومكيدة مع الغوري . والسلطان الغورى واقف مكانه وحوله بعض الجلبان القريبين منه، وأما البعاد عنه فأنهم يظنوا أنه قتل فأنهزموا مع خاير بك قاصدين حلب فلما علم الغورى بما جرى لعسكره من التشتت صار ينادي عليهم بأعلى صوته: يا أغوات، الشجاعة، صبر ساعة فلم يلتفت إليه أحد منهم، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وكل ذلك بعضاً منهم لسلطانهم، فأنه كان يريد أن يقطع القرآصنة شيئا فشيئا

ثم يستقل هو بجلبانه ويقول له الوقت و السلطنة ولقد قال أهل المعرفة: من طلب جله فأته كله ولا تعاند تغلب ولو أنك السلطان فتقدم الأمير سودون العجمي أمير كبير، وقال له يا مولانا السلطات أين جلبانك ؟ أين خاصيتك ؟ هكذا عملت بنا ولا زلت قائماً في حظ نفسك حتى أهلكت نفسك وأهلكتنا معك، ولكن القيامة تجمع بيننا وبينك، وسنقف بين يدي مولانا، سبحانه وتعالى، يحكم بيننا بالعدل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ثم إلتفت عن يمينه فوجد الأمير سيباى والأمير أقباى الطويل، والأمير علان، والأمير أصلان بن بداق، ومن يشبه هؤلاء من القرصنة الأعيان، وهم واقفون متجهزون فأن جيشهم أنكسر قهراً، وما عسي أن تقاتل مائة نفس في مائة وثمانين ألف نفس، ولكنهم مع قلتهم أوقفوا هذا الجيش العظيم، ولم يقدر أحد منهم أن يتقدم ثم عبت هذه الطائفة القليلة من الضرب والقتل والكثرة تغلب الشجاعة ومازال الغورى حتى بقى وحده وخلفه حامل السنجق، أمير اللواء، وكان رجلاً كبير السن من مماليك إينال الأجرود فمن شدة ما حصل للغورى فأنه أنكسر قهراً، ووقع على الأرض مغشياً عليه .

قطع رأس السلطان الغورى

قال فلما وقع السلطان الغورى على الأرض رمى حامل السنجق الرمح، و أخذ القماش المطرز، وكان يساوى ثلاثة آلاف ذهب، فقال الأمير علان لأقبای العطويل: ما ترى في أمر السلطان ؟ قال له: قل ما عندك , قال: أن نحن تركناه ورحنا وخليناه، يأتي العدو فيقتلونه ويأخذون رأسه، يطوفون بها جميع بلاد الروم , قال: فما الرأي ؟ ,قال: الرأي تقطع رأسه وترمي بها في هذا الجب، والجثة بلا رأس لا يعرفها أحد , قال: نعم الرأي ! فأمر الأمير علان عبداً من عبيده، فقطع رأس السلطان الغورى، ورمى بها في جب هناك ثم ولي الأمير علان إلى ناحية حلب، وأما الأمير أقبای الطويل، فأنه طلب ناحية العجم، وأقام بها إلى أن مات وأما الأمراء الذين ألتهوا بالقتال مع الروم فأنهم فاض عليهم بعر المنايا وزاد وأبتلوا بعساكس ملأت السهل والواد، وأجتمع عليهم ذلك الجمع الكثير وخاضت خيولهم في بطون القتلى، فقاتلوا قتال من قطع من الدنيا آباسه فقصدهم الرماة بالبندق، فوقع الأمير سيباى والأمير سودون العجمي، وأما الأمير قانصوه أبن السلطان جبركس فأنه مازال يضرب بالسيف حتى خرق عسكر الروم، وطلع من ذلك الجانب على حمية فلما خلص شم الهواء وردت إليه روحه بعد أن كان أيس من الحياة وألف حسنة لرجل خرج من بين الألوف ولكن إذا جاء أمر الله قضي بالحق، ولا راد لله فيما قضى، فوقع في نهر هناك ينبت فيه العرقسوس، فألتفت عليه قوائم الفرس، فغرق وكان عسكر الروم تنظر إليه على بعد، فلما رأوه في هذه الحالة طمعوا فيه وأحاطوا به فقبضوه وعروه من الملبس فقطعوه بسيوفهم وأما الأمراء فغالبهم تشتت في البلاد وغالبهم قتل وأنهزمت تلك الجموع، فتمكن عسكر السلطان سليم من أوطاق الغورى، وأخذوا كل ما فيه، وكان شيئا يفوق الوصف من الذهب والفضة، والقناطير المقنطرة، ومن اليرات والملبوس والتحف التي جمعتها الملوك السالفة ذهبت كلها، ونهبت في يوم واحد وذلك بالنسبة لما أبقاه السلطان في قلعة حلب،

وما أودعته الأمراء والأجناد عند أهل حلب وهو شيء إلا ينحصر،

قليل جدا ومما نقل أن السلطان الغورى لما خرج لملاقاة العثامنة أخذ معه مائة

قنطار ذهبا دنانير، ومائتى قنطار فضة أنصافاً، وكان قصده أن يجعل ذلك نفقة العسكر، ونوى أنه لا يزال ذاهباً حتى يصل أسطامبول ويأخذها من يد السلطان سليم وسبب ذلك أن السلطان سليم أرسل له كتاباً على سبيل

النصيحة وغالبه تهديد كالسم في الدسم، ومن جملة ما فيه أنه قال أن لم ترجع عما أنت فيه من الظلم والعناء على المسلمين وإلا جثتك بعسكر مرق الروم، وأخرب مصرك عليك فكان هذا الكلام من جملة السبب المحرك للغورى على خروجه لحرب السلطان سليم فأرسل في الجواب: أنا لا أحوجك للمجيء إلينا ولكن تأهب للقاء الأبطال وتنظر كيف تفعل الرجال وصدق في قوله، لأنه أفحم قلوب عسكره، وأهلك غالب الأمراء من القرانصبة، فكرهته العساكر كلها وما خرجوا معه إلا وكل منهم يتمنى ألا يرجع إلى مصر وكان هذا من سوء تدبيره، وكل ذلك حتى يجرى القضاء والقدر قال الراوي: وبات السلطان سليم في مرج دابق ثم أصبح وأمس أن تعد القتلى من الفريقين . فوجدوا الذي قتل من الجراكسة ألف نفس، وأكثرهم من المدافع والبندقيات، والذي قتل من عسكر الروم أربعة آلاف ثم وجد في القتلى رجل عظيم من الجراكسة، و عليه من الملابس الفاخرة ما يناسب الملوك وعليه من الهيبة والوقار ما لا يوصف ووجهه يتلألأ نوراً، وقد جاء مضرب زان أخذه فخذه، فجيء ببعض من يعرف الجراكسة، فوجده سودون العجمي أمير كبير فأمر به السلطان فغسل وصلى عليه وأمر بدفنه فكان ترابه في زاوية هناك تسمى زاوية الشيخ أبي النور القاريء .وأما ما كان من أمر الجراكسة فأنه لما وقعت عليهم الكرة نهب بعضهم بعضاً وصار كل إنسان منهم يأخذ ما قدر عليه وكل من كان له عدو وقدر عليه قتله ولكل شيء آفة من جنسه وأنظر إلى قوله تعالى: « ولا تنازعوا، فتفشلوا، وتذهب ريحكم .. الآية » (٢٨) -وقوله تعالى: « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها .. الآية » (٢٩) -وقوله تعالى: (وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مره له وما لهم من دونه من وال .. الآية » (٣٠) ثم ذهب غالب العسكر قاصدين إلى حلب، فمنعهم أهل حلب لشدة ما قاسوا منهم حين مجيئهم مع الغورى، فتشتت شملهم وذهبت حميتهم وأنكسرت شوكتهم بعد تلك القوة والمنعة العظيمة والبأس الشديد وكان سبب سعادة أمل حلب من هذه الوقعة، فأنهم كانوا أودع عندهم الجراكسة جميع

أموالهم وخرجوا على جرائد الخيل

فطمعت فيهم أهل حلب وصدوهم عن الدخول لأجل ذلك وأما خاير بك فأنه دخل حلب،

وأخذ سيدي محمد بن الغورى، وكان أبقاه أبوه على خزانته وأمواله بقلعة حلب، فأخبره أن شهوار نازل على جيلان بعشرين ألف فارس وهو قاصد أخذك وأخذ حلب فقال سيدى محمد: فما الرأي يا أمير خاير بك ؟ قال: الرأي أن ننادي في العسكري بالرحيل إلى مصر،

ويجتمع إليك ما شئت من المعسكر، وتكون ملك ممبر موضع أبيك وأنا مساعد لك في ذلك فصدقه في ذلك ونادي في حلب بالرحيل إلى مصر، ومن له رغبة في المسير إلى مصر فليتبعنا فخرجت الناس على وجوههم، وتركوا أثقالهم وأموالهم، وأختاروا سلامة الروح، وكانت مكيدة وخرجوا من حلب كالهار بين وفعل ذلك خاير بك حتى يأخذ حلب للسلطان سليم سن غير حرب وكان الأمر كذلك فأنه أرسل الى السلطان يخبره بما فعل، وأنك تسير في هذا الوقت إلى حلب، فأنها خالية من السكر المصري وأما عسكر خلب فمن أطاعنا، أبقيناه فجاء السلطان سليم بموكبه ودخل حلب من غير حرباد وأطاعته الرعايا و العساكر فملكها وأخذ الأموال التي وجدها ونهب الغالب وتلاشى أمر أبن الغورى وما دخل مصر إلا في أسوأ الأحوال وإذا أراد الله بأمر بلغه قال الراوي: فلما خرج أبن الغوري من حلب قصد دمشق الشام فخرجت عليه العربان فنهبت أثقاله وأثقال من معه ومن قدروا عليه، ولولا الأمير أبرك رأس الجلبان والأمير قنبردى الغزالى وإلا كانوا نهبوا جميع العسكر فأن العسكر ماتت قلوبهم وألقي الله تعالى في قلوبهم الرعب فما دخلوا دمشق إلا في أسوأ الأحوال فضاقت عليهم دمشق، وغليت الأسعار، فأقاموا بها ثمانية عشر يوما وأراد الأمير قنبردى الغزالى أن يتسلطن فقال الأمير أبرك: أولى ما تكون السلطنة أن تكون لأبن السلطان فأجابه الجلبان جملة واحدة و بعض من القراصنة: نعم فلما سمع ذلك الأمير قنبردى الغزالي أيس من السلطنة فشرع في الملاحاة عليهم وفي تكيس أمرهم، وكلما دبروا أمراً تحصل منه منفعة يسخطهم فيه فقام الأمير

علان وقال: تخت السلطنة بمصر أم الشام ؟ قالوا: بمصر ,قال: فأذهبوا إلى مصر، وإجتمعوا بمن بها من الأمراء، وأتفقوا على إنسان تختارونه، وسلطنوه، فأن السلطنة لا تصلح لأحد إلا لأشجعنا وأعقلنا وخصوصاً نحن في أضيق الأحوال وعدونا في طلبنا كيف نسلطن علينا ولداً صغيراً؟ وان كان هو أبن السلطان،

ليس فيه كفاءة وقدرة على السلطنة على هذا الوجه وهذا الحال فأستصوبوا رأيه وما قصده إلا أن تكون السلطنة له

فأنه كان من الفرسان المجنورة المشهورة وكل إنسان ما يريد الحظ الأوفر إلا لنفسه فأقتضى رأيهم بالتوجه إلى مصر، وأبن الغورى سهم كأحاد الناس لا يلتفتون اليه وأما القراصنة الرءوس فكل منهم يتمنى أن يكون هو السلطان ولا يكون إلا ما يريد مولانا سبحانه وتعالى ثم خرج المسكر من الشام قاصدين مصر فقالوا للغزالى: من يحفظ الشام ؟ قال: الأمير ناصر الدين بن الحنش فأرسل خلفه وخلع عليه خلعة تليق بمقامه فأنه كان من أعيان شيوخ العربان

بتلك الديار وقال له: البلاد بلادك تسلم حفظها حتى ننظر الأمر كيف يكون ثم ذهب الأمير قنبردى الغزالي مع العسكر إلى مصر وهو كان لهم الغدر لكونهم لم يسلطنوه وأضمر على معاكستهم، و مال بقلبه إلى رأى خاير بك في تحريض السلطان سليم على أخذ مصر فأنه كان قصده الرجوع من حلب إلي شاه إسماعيل وما قصده أخذ مصر ولكن أطمعه في أخذ مصر خاير بك والغزالي فمازال الأمراء والعسكر سائرين إلى أن دخلوا مصر ليلا وهم في أسوأ الأحوال الآن وهي القاعة العظيمة وما حولها وبابها من ناحية سور الغورية فسبحان من يغير ولا يتغير ! وكان الأسير أنس بأي حاجب الحجاب في رأس حدرة البقر عن يمينك وأنت متوجه إلى الصليبة وهو يعرف الآن ببيت حمزة الذي مات في اليمن: وتنمر الزرد كاش في البيت الذي في إزائه وبيت الأمير تاني بك النجمي في حدرة الصليبة عن إيسارك وأنت قاصد قلعة الكبش وبيت الأمير أزبك المكحل في رأس المدابغ عن يسارك الذي كان فيه المرحوم عثمان بيك قائم مقام وبيت قانصوه الفاجر أسفل منه من ناحية بابه زويلة الغورية مكان معروف بالقاهرة بين باب زويلة وشارع

الأزهر مشهور بالسوق العملية مكان بالقاهرة معروف بالقرب من مسجد أحمد بن طولون قلعة الكبش، الجزء المرتفع القائم شرق مسجد أحمد بن طولون حتى البغالة وهي معروف بمناظره التاريخية الجميلة، وقد عرف بالكبش من أسم الجبال المبنية قوته البيوت وكان بهذا المكان دار الأمارة زمن عمال مصر من قبل الخلناه الأمويين والعباسيين وفي أيامه ولي أيام الفاطميين جعلوا فونه تصوراً سمعيت بمناظر الكيش

وقد وصفها المقريزي والمدابغ الجزء الواقع في جنوب مصر القديمة ومشهور آلان بمصانع دبغ الجلود و بيت بخشياى تجاهه به وبيت أبوك رأس الجلبان في رأس الصليبية من ناحية وبيت الأمير طومانباي دوادار كبير على بركة الفيل وبيت الأمير علاء على بركة الناصرية بجوار مدرسة أمير أخور وبيت قانصوه كرت بالقرب من قناطر السباع وأنت قاصد مصر القديمة بجوار مدرسة الأجين وبيت أبن السلطان جركس بقرب سيدي عماد الدين وبيت قطباى نائب القلعة بقرب حمام يشتك الذي في رأس سويقة العزة من داخل الدرب وهو الذي كان ساكناً فيه قايد أغا ناظر الدشيشة بركة النيل مكان معروف بقسم السيدة زينب بالقاهرة من جامع أحمد بن طولون حتى شارع الخليج . بورسعيد، وكانت هذه الأرض كلها بساتين ليس بها بناء، ويشرف على البركة الناظر من أعلى جبل يشكر، ويرى الناظر منها باب زويلة وباب مصر ومدينة مصر وقلعة الروضة وجزيرة الروضة

ومجرى النيل . وكانت بركة النيل من أجمل متنزهات مصر وبيت أركماس أمير مجلس في الأزبكية في بيت يزبك وتاني بك الخازندار في بيت الأمير ماماي الذي هو الآن بيت قاضي العسكر وسودون الدوادار في بيت جانبلاط بالقرب من الخرنفش مقابل مدرسة الباسطية وبيت قانصوه أبو سنة في رأس سويقة العزة من ظاهر الدرب وبيت خوش كلدي في التبانة بجوار سويقة البقلي وأقباى الطويل في بيت ترابيه و بيت الأمير قانصوه رجله في الرميلة وبيت جانبلاط أبو ترسين في سويقة صفية وبيت كرتباى الوالى في رأس سويقة العزة وأنت قاصد باب زويلة وكانت مصر بهذه الأمراء كالعروس المجلية وكل أمير من هؤلاء كالملك المنفرد بنفسه وكل من في حارته عايش في رزقه وفي حمايته

فسبحان من لا يحول ولا يزول ولا تراه العيون وبيت قانصوه أصقله يباب الخلق بالدرة وأنت قاصد سويقة صفية وهو مشهور إلى الآن، وكان يأمر السياس بأن يصقلوا جلد الحصان حتى يصير يلمع كالمصقول من الثياب فلهذا سمي « أصقله » وكان بيت الأمير سودون العجمي في رأس سويقة السباعين على يسار القاصد للسويقة المذكورة فرحم الله تعالى تلك الأرواح إجتماع العسكر بالعسكر المقيم بمصر ونرجع الى إجتماع العسكر بالعسكر المقيم بمصر وحكاية ما وقع لهم، وكيف كسروا قهراً بأختلافهم في بعضهم، وملاحاتهم على سلطانهم،

فأنهم تسببوا في هلاك سلطانهم وهلاك أنفسهم، وكل ذلك ثمرة العتاد،

كما قال القائل: « ولا تعاند تغلب ولو أنك سلطان » ثم أجتمع الأمراء والأعيان في ثاني يوم بقلعة الجبل نقتضى رأيهم جميعاً سلطنة طومانباي وبايعوه على السلطنة في يوم الأحد خامس عشر من شهر رمضان سنة تسعمائة وأثنتين وعشرين وكان رحمه الله غليظ الجثة كبير البطن متوسط الطول كبير اللحية والوجه ورزق من الأولاد الذكور ثلاثة، ولم يعش له منهم سوى سيدي محمد وقد أخبر ولده هذا عن والده أن الغورى عاش من العمر ستة وسبعين سنة وقيل ستا وثمانين سنة ولما بايعوا طومانباي على السلطنة أراد أن يقبض سيدي محمد بن الغورى ويأخذ ما معه من المال فقام الأمير أبرك رأس الجلبان وقام معه من بقي من الجلبان وقال: لا سبيل إلى أذى أبن أستاذنا موجه من الوجوه حتى تذهب أرواحنا يهلك أستاذنا بينكم ويغلب قهراً وتريدون أن تهلكوا ولده الآخر، فلا كان ذلك أبدا إلا ان هلكنا جميعاً فقالت القوانصبة . وكان المتكلم منهم الأمير علان والأمير كرتباى الوالى فأنهم كانوا غرض طومانباي لما يعلمون من دينه وصلاحه وشجاعته و فروسيته، وليس الخبر كالعيان للجلبان: ما حصل لأبن أستاذنا في عرضنا وق

ذمتنا، وأنتم تعلمون أن طومانياى رجل صوفى فقير من الدنيا وليس معه ما يقدم بنظام السلطنة وقصدنا تأخذ من أبن سلطانكم قدر ستين ألفا يدفعها لطومانباي يستعين بها على لقاء العدو والقادمين علينا وأما أبن أستاذكم فأنه ولد صغير ليس فيه

كفاية لذلك فأستحسن الجلبان هذا الكلام وخلوا ما كانوا عزموا عليه من القيام على طومانباى هذا ما كان من أمر الجراكسة وأما السلطان سليم فأنه أقام بحلب نحو العشرين يوماً وكان مع الغورى خلفاء المشايخ مثل خليفة سيدى أحمد البدوي وسيدي عبد القادر الجيلاني وسيدى إبراهيم الدسوقي وأمثالهم فلما وقعت الكسرة على الغورى بقيت المشايخ المذكورون بحلب فلما سمعوا بأن السلطان سليم قادم إلى حلب خافوا من سطوته، فأخذوا في الذهاب نحو الشام فلما رآهم على بعد مع الرايات والأعلام قال: ما هؤلاء ؟ قالوا له: هؤلاء خلفاء المشايخ كانوا جاءوا مع الغورى فلما كسر خرجوا يريدون الذهاب إلى مصر فأمر بإحضارهم فلما مثلوا بين يديه أمر برمى رقابهم واحداً بعد واحد

ولم يرحم منهم كبيراً لكبره ولا صغيراً لصغره فقتلهم عن آخرهم فرحمهم الله أجمعين وكانوا يزيدون على ألف رجل قدر الله عليهم ذلك ثم أمر بالتوجه إلى الشام وكان المشير له بذلك خاير بك ولما قدم على الشام (دمشق) أمر بأحضار على نائب القلعة فشنقه لأجل عدم تقدمه على أستقباله وشنق غالب جماعته وكان السلطان سليم ليس له أقدام على قتل النفس لا يفكر في قتل أحد وكان الأمير خاير بك والأمير ناصر الدين بن الحسن شيخ بلاد الدوار هم المساعدون للسلطان سليم على مراده ليصير لهم عنده مزية على سائر أهل البلاد، ومن كان لهم عنده غرض يبقون عليه و قال الراوي: ثم قرى عزم السلطان سليم على المجيء إلى أرض مصر وما حرضه على مصر إلا خاير بك فأنه قصد الرجوع إلى بلاده بعد أخذ حلب والشام كما فعل قبله السلطان تيمور بهادر خان فأنه كان أخذ حلب و بر الشام بجملته وأخرب الشام وحلب مرة واحدة وأفسده العباد والبلاد وهتك حرمات الله، فأخذه الله أخذة رابية وكان قصده أخذ مصر من يد سلطاتها فراح بن قرقوف فخشي أن يتحول فعمل السكة والخطية في مصر والحرمين بأسمه و فعاد على عقبه وكذلك السلطان سليم لما أخذ ير حلب والشام قصد الرجوع إلى بلاده فأغواه خاير بك وقنبردى الغزالى وناصر الدين بن الحنش على التوجه إلى مصر، وضمن له خاير بك أخذ مصر وذلك مكر منه فأنه علم أنه أن رجع السلطان

سليم إلى أرض الروم لم تبق الجراكسة على خاير بك ولو ذهب إلى تخوم الأرض، فما وسعه إلا أنه إلتزم للسلطان سليم يأخذ مصر أن شاء السلطان فقال له السلطان سليم: وإنى لي يأخذ مصر وجميع العسكري إجتمعوا بها وقد أخذوا أهبتهم وسلطنوا عليهم طومانبا وهو مشهور عندهم بالشجاعة والفروسية ولا بدلهم من أمر يريدونه ونخشى التجوين في بلادهم وبعد المسافة بيننا وبين بلادنا فقال خاير بك: أن العسكر الذين رجعوا من بعد الكسرة أنقطعوا وإنقطعت قلوبهم لا سيما والخلف (بضم الخاء) واقع بينهم فأنهم جميعهم مختلفون وكل من الأمراء والأعيان قصده هلاك الآخر فحيثما كان ذلك فلا تخش من شيء

وأنت منصور بنصر الله لك وقرأ قوله تعالى: (وأن ينصركم الله فلا غالب لكم) فطابت نفس السلطان سليم على التوجه إلى مصر وأخذها ولو فنى نصف عسكره .

كتابة مرسوم إلى السلطان طومان باي

قال: ثم أمر بكتابة مرسوم إلى السلطان طومان باي ملخصه داني أريد أن تكون السكة والخطبة بأسمى وأنت نائب عتى وأبقيك على ما أنت عليه فلما وصل المرسوم إلى طومان باي قرأه وفهم معناه وطابت نفسه على ذلك لكونه فيه حقن الدماء المسلمين فقدر الله تعالى أن الأمير علان طالع الديوان وإذا قد لاحت عنه إلتفاتة فرأي أو لاقية السلطان سليم واقفين تحت الديوان والناس ينظرون إليهم وقد أشيع الخبر بأن السلطان سليم أرسل يطلب أن تكون السكة والخطية بأسمه فلما رآهم الأمير علان لم يتمالك من نفسه إلا أن جذب سيفه وضرب أعناق الأولاقية بيده وكانوا ثلاثة أنفار وطلع إلى السلطان طومان باي وهو مملوء من الغيظ وقال له: أصحيح ما قيل ؟ , قال: نعم ,قال: فما الذي عولت عليه ؟ قال: أوافقه على ما أراد، وأكون سبباً في حقن دماء المسلمين و بقاء كل واحد في وطنه فأنى علمت من كلامه أني إذا لم أجبه يحمل فساد عظيم وعلى كل فهو قادم علينا أولاً محالة وعلمت أن العسكر كلهم مختلفون وليس فيهم أحد مع أحد وما أظن إلا أن الله تعالى أراد زوال ملك آل جركس من هذه الديار فما رأيك أنت ؟ قال: رأيي أن نقاتل عن بلادنا وحريمنا وأرزاقنا أو نقتل عن آخرنا قال: ولكم صبر على القتال؟ قال: هذا أسهل ما يكون فأنى قاتلتهم في هرج دابق وعرفت حالهم فأنه ليس عندهم معرفة بالفروسية ولا ركوب الخيل وإنما غاية ما عندهم الرماة بالبندق والمشاة فنحن إذا صادمناهم ندكس عليهم دكسة واحدة ندعكهم تحت أرجل الخيل ولعل الله تعالى يمكننا منهم ومن سلطانهم فنأخذه أسيراً ونجعله مثلاً ليوم القيامة فلما رأى طومان باى عزم الأمير علان على الحرب وأنتشر الأمر فمنهم من أجاب إلى ذلك وأختار الحرب والطعن والضرب ومنهم من أختار الصلح فقام عليهم الأمير علان والأمير كرتباي الدالي وشنعوا عليهم بالكلام وذموهم فما ساعهم إلا أنهم أتفقوا على الحرب والدفع عن الحريم والأولاد وأما السلطان سليم فلما رجع له الخبر بأن أولاقيته قتلوا بمصر أرسل خاير بك فلما حضر أمره بالجلوس فجلس وكان السلطان يحب خاير بك لأنه لا يأتيه إلا على مراده فأن السلطان سليم كانت همته عالية

ويحب أن يكون رأس الملوك وهو من كان خادماً للحرمين الشريفين فقال السلطان سليم غاير بك: ما الرأي عندك ؟ قال: نركب إلى مصر تأخذها ونقطع هذه الطائفة الجراكسة من أرض مصر جملة واحدة

وأنا ضامن لك هذا الأمر بعناية الله تعالى فألتفت السلطان إلى يونس باشا، وقال له: ما تقول ؟ فقال: أقول أن السلطان يأخذ من غزة إلى الشام ويترك لهم مصر فأننا أن مشينا عليهم وتجونا في أرضهم وبلادهم ما نأمن على أنفسنا أن حصل لنا كسرة لا سيما وعندهم من العربان ما لا يحصى عدداً والعرب تركن إليهم أكثر منا لأنهم معتادون عليهم ومنهم من هو مصادرهم ونندم حيث لا ينفعنا الندم فتألم السلطان لهذا الكلام من يونس باشا وحقره في قلبه ولكنه أسرها له في نفسه حتى قتله وسيأتي ذكر ذلك في موضعه أن شاء الله تعالى .

خروج السلطان سليم إلى مصر

قال: ثم أن السلطان سليم أمر بالرحيل بعد ثلاثة أيام إلى أرض مصر وأما طومان باى فأنه لما رأى الأمراء من الجراكسة معولين على الحرب جمعهم وضرب المشورة على من يكون باشا على العسكر فأتفق رأيهم على أن يكون قنبردى الغزالى وكان ذلك أول عكسهم لكونه ملاحياً عليهم في الباطن وكان جملة العسكر الذين خرجوا معه في هذه التجريدة عشرة آلاف عسكرى وعشرة متقدمين من الألوف وثلاثة من الأمراء والأربعينات وثلاثة من الأمراء العشرات ومن الأمراء المتقدمين من الألوف العشرة المذكورين قنبردى الغزالي نائب أسكندرية وقانصوه أبو سنة وقانصوه كرت وتقطباى نائب القلعة ومن الأمراء الأربعينات برسباى الشهى وقرقماس والأمير مسد وجانبردى والأمير قايتباى نائب الكرك ومن العشرات الأمير خوش كلدي وقانصوه أستدار صحبه والأمير جانم دوادار وسيدي محمد بن الغورى وأخوه جان بك وقرقاس الشريفى ولم يسافر في هذه السنة العج لأن السلطان كان مشغولاً بالعرب ثم خرج العسكر في أول شوال سنة أثنتين وعشرين وتسعمائة فلما وصلوا خان يونس وإذا بعسكر السلطان سليم قد أشرف فوقف كل من العسكرين وأرسل كل منهما فارساً يكشف الخبر فلما إجتمع الفارسان سأل بعضهما بعضا فكل منهما أجاب عن قومه ثم أفترقا ورجعا وأخبر بالأمر فلما تحقق كل من الفريقين الخبر تهيأوا للقتال وترتبوا ترتيب الحرب ودرست الجراكسة بالخيل العربية دكسة تهد الجبال فلاقتهم اليكنجرية برش بندق خلت الراقد أكثر من الواقف فدكس الغزالي وجاءته الحمية وأفحش في القتل فتكاثروا عليه وجذبوه بالكلاليب وأخذوه أسيراً فتعصب له الزعر من النلمان وخلصوه من قلب العدو بعد أن قتلوا من اليكنجربة مقتلة عظيمة وخلصوه وكانت الكسرة على الجراكسة وأما جند العسكر الروم فأنه كان فرهاد باشا تقدم على عسكر السلطان بقدر يريد وكان المساعد له شيخ العرب المسمى باب البريق على الجراكسة ولا ضرهم إلا البندق فأنه يأخذ الرجل على حين غفلة لا يعرف من أين جاءه فقاتل الله أول من صنعها وقاتل من يرمي بها على من يشهد له بالوحدانية ولرسوله علي الرسالة

ونرجع إلى سياقة الحديث فأما السلطان سليم فلازال سائراً على الراحة حتى دخل قطياً فلم يجد بها أحداً من العسكر مطلقا فأقام بها ثلاثة أيام فرد عليه أحمد بن بقر شيخ بني وائل ومعه أولاده عبد الدايم و بيبرس والجذامي وخاطر وكان خاطر أصفر هم

فخلع عليه وعلى أولاد السلطان سليم خلعاً وكان أحمد بن بقر (بقار) صاحب طبل خانة في مصر وأقره على ما هو عليه من بلاده وأرزاقه وكذلك مشايخ العربان ثم أن السلطان سليم أمي بإحضار خاير بك ووزرائه.. وقال: ما تقولون في حيلة يكون بها تفريق شمل الجراكسة؟ قالوا: وما هي ؟ قال: أئتوني بفلان الكاتب وكان هذا الرجل يكتب بالسبعة أقلام ويحاكي جميع الخطوط فحضر فقال له السلطان: أريد منك أن تكتب كتباً تاكى فيها خطوطاً مختلفة على لسان أمراء مصر وأبن الغورى بأنهم معي في الباطن ويحرضوني على المجيء إلى مصر ويكونون معي ويساعدوني على طومان باي وعلان وكرتباى الوالى فكتب الكاتب على لسان الأمراء المذكورين وربط الكتب المذكورة وأوصلها لرجل من جماعة خاير بك وأمره بالذهاب إلى أوطاق طومان باي وأن يرميها بالقرب من مجلس السلطان ويقف لينظر ما يقع بينهم من الخلف ثم يرجع ليخبر السلطان سليم ففعل ذلك فرأى المكاتيب بعض مماليك طومان باى نأخذها وأوصلها إلى أستاذه فأخذها وقرأها وجمع الأمراء وأخبرهم بذلك فأنكروا كلهم ذلك وحلفوا الأيسان المعظمة أن هذا لم يصدر منهم فتحير طومان باي في أمره وأفتتن العسكر وكادوا أن يقتل بعضهم بعضا فقال لهم طومان باي ربما تكون هذه مكيدة من الأعادي كادونا بها ليفتنونا ولكن الله تعالى يقابل كلاً منا بما يستحق ولكن كونوا على أهبتكم للقاء عدوكم فلما كان يوم الثلاثاء آخر شهر ذي الحجة الحرام جاءت الأخبار بأن السلطان سليم دخل الخانقاه ونادي السلطان طومان باي في عسكره كل من جاء يرأس رومى له ما يريد من كل شيء فصارت فرسان الجراكسة تشن الغارة على عسكر السلطان سليم وكل من أستطرفوا به أخذوا رأسه وجاءوا بها إلي طومان باى فصار يجزل عطاياهم فساء ذلك قنبردى الغزالي فلما دخل الليل دخل خيمته وكتب كتاباً وختمه وذكر فيه جميع ما فعله طومان باى وأنه أخرج المدافع الكبار التي أودعوها في الجبل هناك وجعل آلات العرب وقد أشرت عليهم بدفنها في الرمل لئلا ينظرها أحد من

الجواسيس فيخبركم بذلك

فقبلوا مني ذلك بعد جهد عظيم منى خشيت على عسكر السلطان من هذا البلاء العظيم والصواب أن السلطان يدور ويأتي من جانب الجيل فيصيرون أذا رموا لا يفيد رميهم شيئاً وأرسل الكتاب إلى خاير بك فأوصله إلى السلطان سليم فسر بذلك وأجزل عطاء القاصد به ورد الجواب ورجع في جوف الليل إلى سيده الغزالي ولكل شيء آفة من جنسه ففي صبيحة ذلك اليوم أمر السلطان سليم بالرحيل إلى ملاقاة طومان باى وأما السلطان طومان باي فأنه أتفق مع الأمير علان

والأمير كرتباى الوالي أن يتفرق بعضهم عن بعض ويحمى بعضهم بعضاً وقد علموا أن الغزالي ملاحي عليهم وتحققوا ذلك وقصدوا قتله ولكنهم خشوا أن قتلوه أن يفتتن العسكر ولكن توكلوا على الله وأخلصوا نياتهم وأتفق أنهم يقصدون سنجق السلطان سليم فلا يرجعون إلا أن يقتلوه أو يقتلوا فلما أصبح الصباح ما طلعت الشمس إلا وعسكر السلطان سليم منسكب ناحية الجبل كالجراد المنتشر من وراء ظهر عسكر طومان باى فأرتجوا لما رأوا ذلك وأيقن طومان باى بأن عسكره ملاح عليه وأن أشارتهم عليه بدفن المدافع مكيدة منهم له ولم ير له حيلة يحتال بها فلم يسعه إلا التسليم لله تعالى فيما حل به لم يرم شيئا من تلك المدافع مطلقا إلا أن رجلا واحدا وكان آخر من يرمى مدفعا يسمى مجنونه رماه وهوب ففتح في عسكر السلطان سليم زقاقاً فارتج العسكر الرومى وظنوا أن خاير بك والغزالى مكروا بهم فأرسل السلطان سليم خلف خاير بك وكان قريباً منه فقال: ما هذا الذي ذكرته في ردم مدافعهم بالرمل فما هذا الحال ؟ ورأى منه الغضب فقال خاير بك: مهلاً على وأرسل جاسوساً يكشف الأمر فقاب ورجع مسرعا وقال: رأيت المدافع كلها مردومة بالرمل وإنما هذا رجل أخرس لم يردم مدفعه بالرمل، وأبقاه مكشوفا وقال أنه ضامن لذلك فرمى به وهرب فأطمان السلطان سليم وأما السلطان طومان باي فلم ينظر إلى شيء وإنما قصد سنجق السلطان سليم هو والأمير علاء و گرتباى الوالي فما زالوا في مشوارهم وهم يطعنون بالقنطاريات حتى غاصوا في جميع عسكر الروم بجملتها فلله درهم من فرسان لكونهم

لقوا هذا الجيش الظيم بنفوسهم !

وليس الخبر كالعيان فمازالوا يضربون ويطعنون حتى وصلوا سنجق السلطان فظن السلطان طومان باي أن الذي تحت السنجق السلطان سليم فقال له يا سليم: أنت غير صالح وجذبه من على سرجه بيده اليسرى ورفعه بأعلى رأسه وخبطه على الأرض فطبق أضلاعه بين جنبيه وضربة الأمير علان من على يساره فأزال رأسه وكان معه محمود بن رمضان صاحب أضنة .

كتابة مرسوم إلى السلطان طومان باي

وكذلك فعل الأمير كر تباى الوالى بالأمير علي بن شهوار فلما فعلوا ذلك قوى قلبهم وأشتفي غليلهم وبقيت الروم باهتة بأعينهم كأنهم قطيع غنم بلا راع فأعقب الفرحة ترحة وظهر أن الذين قتله طومان باي إنما هو الوزير الذي يسد مى ستان باشا وسبب ذلك أن السلطان سليم وخاير بك وفرهاد باشا أويونس باشا التفوا من طرف العسكر ومر عليهم طومان باى عند رجوعه وصحبته علان وكرتباى وهم ينظرون إليهم فلم يقدر واحد منهم أن يتعرض له ولا يقربه مع أنهم ألو علموا أنهم هم ما برحوا حتى أخذوهم ولكن الحي ما له قاتل فرجع طومان باى من حملته تلك فلم ير أحداً من عسكره فإذا به متكسر والعدو في أثره فكشف عنه هو والأميران المذكوران وردوا الروم عنهم وإذا ببندقية جاءت للأمير علان في قصبة رجله أنكسرتها ودخلت في جنب الحصان فقتلته لوقته فوقع من ساعته إلا أن الأمير علان حمل نفسه وهم عن الفرس قبل أن تصل الأرض وجاءوا له بجنيب فركبه وقد أيس من الحياة فرد السلطان طومان باي ولوى عنان فرسه إلى قناطر بني وائل فلما عاين طومان باي ذلك أيس من الحرب ولم يبق معه أحد إلا كرتباى الوالي فقصد نحو القلعة وطلبوا من خلفها فمازالوا حتى نزلوا بركة الحيش وتمادوا إلى وأما الأمير علان فأنه مازال سائرا حتى وصل المنيل وعدي لبي المنوفية وذهب إلى فلاحة أبن بغداد الأمير حسام الدين فلاقاه أحسن ملتقى ورحب به وأرسل فجاء له بالمجبر وبقي عنده نحو اليومين فرأي من عينه الغدر وأنه يريد أن يقبض عليه ويرسله إلى عدوه فلما تحقق ذلك تأسف على نفسه وأمر بأن ينشد له الحصان لأجل أن يشم الهواء فظنوا أنه لم يفطن بهم فركبوه فلما ركب جواده طلب سيفه وترسه وقنطاريته فلم يقدر أحد أن يتعرض له ولا يقربه مع أنه لو علم أنهم كذا ما كان يقرب إليهم ولما ركب على حصانه ألتفت إلى الأمير حسام الدين وقال له: ستنظرون أرواحكم بعدنا يا خونة، الله يخون الخائن ولوى عنان جواده فلم يتبعه أحد وكلما لاقته سرية عرب يقول لهم: أنا علان فلم يقدر أحد أن يقر به فمازال حتى عدى بر الجيزة وقصد نحو الصعيد فمازال حتى دخل بلداً في إقليم البهنسا يقال لها نويرة

فنزل عن فرسه وأستقبل القبلة فمات رحمة الله فصلى عليه أهل البلد ودفنوه في زاوية هناك وأما السلطان طومان باي فأنه لما رجع من الحرب لم يجد أحدا من عسكره إلا وقد ولى متهماً من كثرة البندق والضرب بالزانات

فلم يستطع أحد أن يقف أمام ذلك فطلع من وراء القلعة وقصد ناحية طرا والعدوية وتبعه بعض العسكر يقفون أثره سرية بعد سرية إلى أن سار معه سبعة آلاف فارس الأعيان منهم الأمير قانصوه كرت وقانصوه رجله وقانصوه الفاجر وأنس باى صاحب المجاب ويخشباى أمير مجلس وشار بك الأعور والأمير قانصوه العادلى كاشف المتوفية وأزبك المكحل وثاني بك النجمي والباقى مماليكهم وأتباعهم وأما الأمير جانبلاط فأنه قد تجون في قلب العدو وما بقي يقدر على الهرب فلما أيقن من نفسه صار يقاتل لى وراء ! فمازال كذلك حتى وصل إلى قبة الهواء فبطل جواده فنزل عنه وصار يقاتل راجلاً يعنى ماشياً فلما رأته الروم ترجل طمعوا فيه وقالوا: هذا رجل ونحن رجال فأنطبقوا عليه كالجراد فصادفته ضربة زان فوقع الى الأرض ووقعوا عليه بالسيوف حتى صار لا يعلم له رأس من رجل وكذلك الأمير قانصوه رجله في الرملية وما بقي من عسكر الحراكسة منهم من قتل بالبندق ومنهم من هرب ومنهم من تبع السلطان طومان باي وباتت مصير ليس فيها جركسي إلا أن كان مخفياً فعند ذلك دخل خاير بك على السلطان سليم وأخبره يما وقع وأنه أمر بإرسال صوباشى فملك القلبية وليس فيها أحد غيره والرأي لا يراه مولانا السلطان فشكره السلطان على ما فعله من تمليكه ملك مصير الذي ماتت بحسرته الملوك فقال السلطان صف لي مصر كأني أنظر إليها فوصفها له من أولها إلى آخرها فأختار النزول على شاطىء النيل في الجزيرة الورطانية وإنما طلع إلى القلعة ساعة وجلس على المصطبة التي تجاه الديوان ثم نزل على الفور خيفة على نفسه من الغدر من أحد من الأعادي وبات في الجزيرة ثم أنه شرع في إرسال العسكر إلى طومان باي فلم يجدوا بمصير جركسيا وباتت مصر ليس فيها منهم أحد وأما طومان باي فأنه صار بمماليكه إلى طرا والعدوية وتبعته العساكر الجراسة حتى بقى معه سبعة آلاف خيال فأقتضى رأيهم بالرجوع إلى مصر وأن يعاربوا عدوهم حتى يغنوا عن آخرهم فرجع طومان باى ونزل في الشيخونية وتفقت العساكر في الحارات

فقتلوا من الروم نحو العشرة آلاف أو أكثر في ليلة واحدة ثم أصبحوا فجاءتهم عساكر الروم من جهة الكبش ومن جهة حدرة الحنة فأقتتلوا مرات عديدة وظهرت الجراكسة على الأروام وقتلوا منهم نحو خمسة عشر ألفا في ثلاثة أيام وفي كل مرة يرجع الروم منهزمين فعند ذلك أقتضى رأي السلطان سليم أن يركب هو نفسه ويأتي من جانب القرافة ويلقي طومان باى

في الرملية، فأما له وأما عليه ونوى أن وقعت الكسرة عليه يرجع سائرا إلى بلاد الروم فلما فعل ذلك وجاء الى الرملية أطبق الجو من ضرب البندق والضرب بالزانات فلما سمع الجراكسة ذلك بعدوا بعد أن كانوا غالبين مستبشرين بالنصر وهرب غالب عسكرهم وقالوا: من يقابل هذه النار المهلكة وأما طومان باي فأنه لم يهرب، وحطم عليهم حطمة الأسد النضبان وقتل فيهم قتلاً حتى كل ساعده ولكن ماذا يفعل الواحد في مائتي ألف وأكثر ثم رجع فلم ير خلفه أحداً من عسكره فمازال طالباً نحو الشيخونية فلم ير أحدا وكان قد تواعد مع عسكره أنهم أن حصل لهم هزيمة يكون موعدهم الجيزة فتوجه إليها هو وبقية مماليكه و بعض العساكر حتى صاروا نحو الألفين وأما السلطان سليم فأنه رجع منصوراً الى الجزيرة الوسطانية وأرسل إلى خاير بك فقال له: ما الرأي عندك ؟قال له: ما بقي لهم بعد هذه الصدمة رأس تقام أبداً قد هرب غالب العسكر ولم يتبعوا طومان باي فالرأي عندك تنادي لهم بالأمان وبعد ثلاثة أيام كل من وجد عنده جركسى مخبى شنق على باب داره وكل من كان عنده واحد منهم وأخبر السلطان به وقبض عليه فعليه الأمان هو ومن يلوذ به فبقيت أولاد مصر كل من كان عنده جركسي يأتي إلى خاير بك ويخبره بما عنده فيرسل له جماعة يقبضون عليه ويأتي به إلى أوطاق السلطان سليم فيضربون عنقه ويرمونه في البحر فمن جملة من كان مختبئا الأمير كرتباى الوالي فأنه جاءته بندقية في فخذه فأضرته فما ساعه إلا وهرب فأختفى عند رجل من أصحابه من المباشرين يسمى يحيى بن بكر فلما سمع بالنداء قال في نفسه أحسن ما يكون و أفعل أن أذهب إلى أوطاق السلطان سليم، وأخبره بأن گرتباى الوالي مخبي عنده وأن يرسل له منديل الأمان وأقابله به وأكتفي شره وتصير على يد عند السلطان فجاء إلى أوطاق السلطان سليم وأجتمع به مع خاير بك ففرح السلطان بذلك

وأوعده بأن يعطى له أي منصب شاء

وأرسل معه منديل الأمان والمصحف وكتب له كتاباً آن جاءه و قابله لا يفعل فيه شيئاً وعليه الأمان ولا يرى منه إلا ما يسره ترجع أبن بكر إلى كرتباى الوالى و بشره بالفرج وأنه أجتمع مع السلطان سليم و أعطاه منديل الأمان وها هو وحن له عبارة في المقابلة وأنه يصير آمنا على نفسه وماله وعياله فدخلت رأسه الجراب وأجاب إلى المقابلة وقام من ساعته وركبه معه إلى أوطاق السلطان سليم فلما رآه خاير بك فرح به فرحاً يورث ترحا وقال له: يا أمير كرتباى أين عقلك تتبع هذا المجنون المخالل بنفسه ؟ يشير الى طومان باي - فسوف ترى كيف

تأتي به ذللا حقيرا، ولكن حيث جئت طائعا مختارا فما بقي عليك خوف بعد اليوم: ومن ثم دخل خاير بك على السلطان وأخبره بمجيء كرتباى فخرج السلطان إلى ظاهر الخيمة وجلس على كرسى نصب له ونظر الى گرتباى الوالي وقال له: أنت كرتباى ؟قال: نعم , قال: أين فروسيتك ؟ وأين شجاعتك ؟ -قال: باقية على حالها -قال: أتذكر ما فعلته مع عسكرى قال: أعرفه ولا نسيت منه شيئا: قال: ما فعلت بعلي بن شهوار ؟قال: و قتلته مع جملة من قتلتهم من عمتكرك بعد أن عرف من عين السلطان القدر وأنه يقتله ولا بقى له منه خلاص فترك الأدب وتكلم كلام من أيس من الحياة وجمل عينه في عين السلطان ورفع يده اليمني في وجه السلطان وقال له:- اسمع كلامي، وأصغ إليه حتى تعلم أنت و غيرك أن منا فرسان المنايا والموت الأحمر ولو يلى واحد منا بعسكرك بنفسه وحده، وإذا لم تصدق فجرب، فأمر عسكرك أن يتركوا ضرب البندق فقط وهانت معك مائتا الف من جميع الأجناس وقف مكانك وصف عسكرك ويخرج لك منا ثلاثة أنفار أنا عبد الله والفارس الكرار السلطان طومان باي والأمير علان وأنظر بعينك كيف تفعل هذه الثلاثة تبقى تعرف روحك أن كنت ملكا أو يصلح لك أن تكون ملكا فان الملك لا يصلح إلا لمن يكون من الأبطال المجنورة كما كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم فانظر في التواريخ ما كان من الامام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وخذل بأغضيه من الشجاعة وكذلك الامام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه وكرم الله وجهه

- وأما أنت فقد لفقت لك عساكر من أطراف الدنيا من نصارى و من أروام، ومن غيرهما، وجئت بهذه الحيلة التي تمحيلت بها الافرنج لما أن عجزوا عن ملاقاة العساكر الأسلامية

وهذه هي البندق التي لو رمت بها آمرأة لمتعت بها كذا وكذا إنسانا ونحن لو أخترنا الرمي بها ما سبقتنا إليه ولكن نحن قوم لا نترك سنة نبينا محمد ويا ويلك كيف ترمى بالنار من يشهد الله بالوحدانية ولمحمد ع بالرسالة وقد جاء بهذه البندقية رجل مغربي للسلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري رحمه الله تعالى وقتل قاتله وأخبره أن هذه البندقية ظهرت من بلاد البندق وقد أستعملها جميع عساكر الروم والعرب وهي هذه فأمره أن يعلمها البعض مماليكه ففعل وجيء بهم فرموا بحضرته فساءه ذلك وقال للمغربى: نحن لا نترك سنة نبينا ونتبع سنة النصارى وقد قال مولانا سبحانه وتعالى: « أن ينصركم الله فلا غالب لكم» فرجع ذلك المغربى وهو يقول: من عاش ينظر هذا الملك وهو يؤخذ بهذه البندقية وقد كان كذلك، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم -

فقال له السلطان سليم: حيث كانت فيكم الشجاعة والشجعان والفرسان وأنتم على الكتاب والسنة كما زعمت فبأي سبب غلبناكم ومن أرضكم أخرجناكم وأستعيدنا أولادكم وأفنينا جموعكم ؟ وهأنت حضرت أسيراً بين يدينا ؟فقال الأمير كرتباى: والله ما أخذتم أرضناً بقوتكم ولا بفروسيتكم وإنما ذلك أمر قضاء الله تعالى وقدره في الأزل وقد جعل الله لكل شيء بداية، ولكل بداية نهاية ولكل دولة مدة معلومة وقسمة مقسومة وقد جرت عادة الله سبحانه في خلقه بذلك أين الأئمة المجتهدون أين الملوك والسلاطين ؟ وانت أيضا لابد أن تموت ويحترم هذا النظام وما أظنك إلا من الذين قال الله تعالى في حقهم سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم أن كيدى متين كيف بك إذا وقفت بين يدي الله رب العالمين ؟ فأفحم منه السلطان ولكنه أظهر الحلم وفؤاده يتوقد من شدة الغيظ لما أغلظ عليه كرتباى وأقام عليه الحجج المسكتة التي ليس لها جواب ثم قال له: وأما قولك أنك أخذتني أسيراً فأنه كلام باطل وإنما جاءنى رسولك بكتابك مختومة بختمك وها هو فظننت أنك تقف على قولك فما رأيت من ذلك شيئاً

وما ورد من هذا المعنى: «المؤمنون عند أقوالهم » وأيضا و المؤمن أن قال صدق وأن قيل صدق » وقال مولانا عز من قائل: « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها » فإزداد السلطان سليم غيظا ولكنه أظهر الحلم وأما خاير بك

فقد طأطأ رأسه وصار المرق يقطر من وجهة وبقية الوزراء واقفين حولهم ينظرون ويسمعون الكلام ولا يقدرون على شيء ومما ورد في الحديث الشريف أن أربع خصال من كن فيه فهو منافق: من إذا أؤتمن غدر وان عوملنكي وإذا خوصم فجر وإذا قوطع هجر وأنت تزعم أنك تريد أن تكون خادما للحرمين الشريفين وأنك من أهل العدل والأتصاف فما رأينا شيئا من ذلك وأنما رأيناك من أهل الجور والأعتساف يا ويحك كيف تنادي للناس بالأمان وإذا جاءوك تخوفهم ولكن كفاك أن أسمك سليم خان والله قد رأينا في التواريخ أن الملوك التي كانت قبلنا من الأتراك والأكراد - رحمهم الله تعالى - كان النصارى إذا قالوا لهم قولا وحلفوا لهم عليه أو قالوا للنصارى قولا وعاهدو هم عليه لا يخلفوهم فيه وهم نصارى فكيف بمن يدعي أنه من الملوك العادلة ويريد أن يكون خادما للحرمين الشريفين وهو لا يصدق في قوله والكذب شيمة المنافقين فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم فلا يقس نك ما أنت فيه وما أصبحت دولتك فيه من الأقبال، فأنه لا بد لكل أقبال من أدبار ولكل جمع من تشريق ولكل أجل من أنصرام ولكل توفيق من أختلاف ولكل فرح من ترح

وقد كنا قوى منكم و أشد بأسا وأعظم مراسا وأنظر كيف فعلت بنا هذه الدنيا الغدارة المكارة وبعد ما حصل لنا ذلك أنا بينكم واحد بمفردى، أؤمر عسكرك أن يضربوا على يزك ويسيروا إلى مائة بمائة أو مائتين بمائتين أو ألف بألف وأنظر ما أصنع كل ذلك والسلطان سليم ساكت يسمع قول كرتباى وجرامته في هذا الكلام وأستحضاره هذه الأجوبة مع أنه متحقق الهلاك ولا محالة ثم قال: بأي سبب تذمنا في قولك وتزدرينا وتسبنا والله لا يهمنا كثرة جموعكم ولا رميكم ببندقكم و أحجاركم وإنما كان السبب لزو التخالف حصل بينا فنظر السلطان إلى خاير بك وأشار إليه بأن يقرب منه حتى يشاوره في أمر كرتباى الوالي فلما وقف قدام الكرسي قال له:ما تقول في هذا الرجل وجوابه وقوة

قلبه أن قتل مثل هذا لا يليق وأفتخر بمثل هذا في عسكرى وأجعله سنجقا فأصفر لون خاير بك وقال: يا مولاي، أن أبقيت عليه وجعلته وزيرا لا يبقي عليك هذا المعاند الباطل والكلب الجاهل ويفسد جميع عسكرك وما قال ذلك خاير بك إلا بنضا فيه وفي أبناء جنسه فقال له السلطان: فما الرأي ؟ قال: أضرب عنقه بلا تأخير .وتأخر خاير بك،

ووقف مكانه ولونه مصفر متغير فعرف الأمير كرتباى أنه حسن له قتله .فقال الأمير كرتباي للسلطان: أن هذا قائدك الى جهنم أصنع ما شئت، من لم يمت بالسيف مات بغيره .فعند ذلك نظر السلطان إليه نظرة الغضب، وقال له:- إني أردت أن أعتقك وأفرج عناء، وأجعلك أميرامن أمرائى، فرأيتك قليل الأدب، جريع اللسان، والذي يدخل على مجالس السلاطين بلا قيمة يخرج بلا قيمة , فقال له كرتباى الوالي: معاذ الله أن أكون من أمرائك ومن أتباعك وأنت بهذه الصفة أفتادي السلطان بأعلى صوته وقد أحمر وجهه من شدة الغيظ، وقال: أين الجلاد ؟فتقدم نحوه مائة وخمسون جلادا .قال: أضربوا عنق هذا الملعون الجركسى , فقال كرتباى: قطع رأسي وحدي لا يفيدك منه شيء فأن ورائي أبطالاً وشجعاناً وكفى بالسلطان طومان باى- نصره الله , فلما سمع السلطان بذلك أمر بالسياف أن يقرب فقال له والسيف فوق رأسه: إذا قطعت رأسي خذها وهي بدمها بيدك وأجعلها في أمرأتك يا خائن يخونك الله .فضربه السياف، قطير رأسه قدامه، وذهب إلى حاله .وأما السلطان طومان باى، فأنه لما وقعت الكبيرة على الجراكندية كان وعد هم قبل ذلك وقالوا: أن جاءت الكسرة علينا يكون ميعادنا بر الجيزة - فلما كان كذلك عدي إلى بر الجيزة وتبعه بعض الجراكسة حتى صار معه ألفا خيال

فيهم كل فارس يقوم بألف فارس إلا أن الكثرة غلبت الشجاعة والنار لا يقابلها أحد ولولا النار التي مع السلطان سليم ما غلبهم في الحرب ولا مرة ولكن إذا أراد الله بأمر بلغة ولله في هذه أرادة -فذهب السلطان طومان باي إلى نحو الصعيد وقصد هوارة وطلب منهم النصرة وأن يرفع عنهم الخراج ثلاث سنوات فأبوا وقالوا: قد بلغنا أن الروم تقاتل

بالنار ومن يطلق النار؟ فأتني راجعا وتبعه من العربان نحو سبعة آلاف فارس محبة فيه فأنه كان رحمة الله عليه محبوب الصورة لكل أحد ولكن إذا تم الأمر ترقب زواله إذا قيل تم فلم يزل قادما حتى وصل إلى قرب أطفيح فرآى قلوعا بكثرة وهي مقلعة فلما عاينها وقف وقال: ما أظن إلا أن السلطان سليم جاءنا أو أرسل لنا جيشاً قال: فلما عاينوا بعضهم بعضا دخلت المراكب البره وطلع منهم من الرماة نحو خمسة آلاف رام بالبندق والضريزانات ومن المدافع خمسون وكان القيم على ذلك رجلا يسمى جانم السيفي كاشف الفيوم فأنه جاء مع السلطان طومان باى

بعد كسرة الريدانية وأجتمعوا عند طرا والعدوية وأتفق رأيهم بأن يكبسوا على السلطان سليم بالجزيرة الوسطانية التي بين بولاق وقصر أبن العيني فلما علم ذلك جانم قال في نفسه أحق أن أفعل أن أذهب إلى السلطان سليم خان وأخبره بذلك وآخذ لي منه الأمان وأكون من حز به فأن دولتنا قد ولت فخرج ليلا من عسكر السلطان طومان باي هو وأمير آخر يسمى أبو حمزة ومعهم مماليكهم نحو المائتين فلما أصبحوا علموا أن جانما السيفي قد خرج ليلا فأستقصوا خبره فقال بعض الأجناد للسلطان طومان باى: قد سمعناه وهو يقول أن الذي يريد السلامة لنفسه يتبع السلطان سليم فأن أسمه سليم ومن تبعه سلم ومن عصاه ندم فتكدر السلطان طومان باى وقال: سيندم حيث لا ينفعه الندم وهل يرتجي من العدو خير ؟ ولكن لا دافع الله فيما قضى فلما أجتمع جانم السيفي والسلطان سليم و أخبره أنه جاء راغبا في طاعته و آن طومان باي قد عول على أكيسه في الليلة القابلة أخذوا أهبتهم وأستيقظوا لأنفسهم فجاوت الأخبار الطومان باى بأن جانما السيفي دخل في طاعة السلطان سليم وأخبره أنك تريد أن تكبس عليه فأخذوا أهبتهم وعبوا النار من كل جهة فأن فعلت شيئا من ذلك أهلكت نفسك وأهلكت من معك فأعرض عن ذلك وأقتفى رأيه أن ينزل في الشيخونية ويحاربهم كما تقدم ثم أنكسر وذهب إلى الجزيرة فلما علم السلطان طومان باي أن هذه المراكب ما جاء بها إلا جانم السيني (غضب) فأنه لما أجتمع بالسلطان سليم و عرف صدقه وأمانته كان السلطان كلما يجلس في ديوانه يرسل خلف خاير بك وجانم هذا ويأمرهم بالجلوس بحضرته ويستشيرهم بما فيه الصواب، ويظهر لهم أنه أن تمكن على ملك

مصر يعطى خاير بك باشويته إلى أن يموت أقطاعا ويعطى لجانم الفيوم أقطاعا ثم قال لهم: قصدي أرسل لطومان باى جيشا لعل أن أظفر به فقالوا له: حبا وكرامة قل ما شئت فأنا لأمرك طاعون ولى إيك سامعون فقال: من يكون باشا على العسكر ؟ فقال جاثم السيفي: أنا أكفيك ذلك أن شاء الله وأرجوا ألا أرجع برأس طومان باي أو أقبض عليه قبضا باليد وآتي لكم به أسيرا فشكره السلطان على ذلك الفأرس معه خمسة عشر ألف راكب وخمسة آلاف رامى بندق وخمسين ضر برانات وخلع عليه خلعة وخرج خرجة أطبقت الجو حين أقلع ورمت الرماة طلقا أظلم الدنيا وأيقنت الناس أن طومان باي لا طاقة له بهذا الجيش

وخصوصا جانم السيفى مقدم عليهم وكان جانم هذا من الأبطال المشهورة والشجعان الجنورة فلما عاين عسكر طومان باى أمر بدخول المراكب إلى البر: وسيبوا للقا تزلزلت الأرض منه وأرسل إلى طومان باى يقول له: في غد الحرب بيننا وبينك فقال طومان باي: حبا وكرامة

التقاء طومان باي مع جانم السيفي

قال: فلما أصبح النهار تصافوا للحرب فأما العرب التي كانت تجمعت مع طومان باي فأنهم لما رأوا هذه النيران قال بعضهم لبعض:- ومن يطيق هذا الأمر المهلك ولا يقاتل هؤلاء إلا مجنون أو فارغ من الحياة ولكن نحن نرتفع عن هؤلاء إلي بعد فكل من رأينا الكسرة عليه نهبناه -هذا ما كان من أمر العرب وأما السلطان طومان باي فأنه ثبت للحرب ولم يتأخر من مكانه فكان أول من خرج في حومة الميدان جانم السينى ونادى بأعلى صوته: لا يبرز لي إلا الأمير طومان باي ولعب أندابا في الميدان حتى أدهش الناظرين -وقوي قلب الروم حين رأوا منه ذلك . وقالوا: ما يقارن طومان باي في الفروسية إلا هنا البهلوان وصاروا يشكرونه فلما سمع منهم ذلك زاد في لعب الأنداب حتى تعجب الحاضرون من الروم ثم بعد ذلك وقف في حومة الميدان وقال للجراكسة:- أين فرسانكم أين شجعانكم ؟ لا فخرج من بينهم فارس كأنه الباشق إذا أنقض على الصيد وقال له: غرتك نفسك يا جانم وخنت أبناء جنسك فسود الله وجهك يا خائن فقال له: بطل الكلام وأبرز للضرب بالحسام فقال: أصبر حتى أريك لعب الأنداب وكان ذلك الفارس هو الأمير دولتباى كاشف الجيزة فلعب في الميدان أندا بأفاق عليه فتعجب الروم ثم إلتحم الأثنان فوقع بينهما من الحرب ما حير النظار من أول النهار إلى الظهر فلما أيس جانم من خصمه رمي الرمح ود رحب السيف وضرب دولتباى على خوذته فقطعها وجرحه جرحا غير بالغ فلما ساح دمه عيطت الروم بأجمعها آفرما آفرم نقوى قلب جانم وضرب خصمه ضربة أزالت رمحه قبقى الرمح في يد دولتباي من غير حرية فألقت الركيز وحذفه على جانم فدخل الركيز في جنبه شبك بين أضلاعه فوقع عن جواده فنزل دولت باى اليقطع رأسه فاندلعت عليه الروم بجملتها فلم يتمكن من عدوه فما ساعه إلى أن تركه وأنثنى على جواده " وإلتطم الجيشان فلله در ألفين تقاتل في عشرين ألفا وتكسرهم حتى أوقفوهم في مراكبهم وكان النهار قد ولى فنزل عسكر الروم إلى المراكب وعدوا إلى ذلك البر الغربى وأما السلطان طومان باى فأنه بات في البر الغربى فلما جن الليل جلس طومان باي ودعا الأمير شار بك الأعور وبقية الأمراء وضربوا

المشورة فأقتضى الرأي أن يقتسموا إلى فرقتين فرقة مع الأمير شار بك وفرقة مع السلطان طومان باي

وأن يذهب الأمير شار بك إلى بعد ويقف السلطان طومان باي في موضع المعركة فإن عدى الأروام وجاءوا لنا أخذناهم مواسطة .

فأتفقوا على ذلك و أما المسكر الرومي لما أصبحوا قالوا لجانم:- ما الرأي عندك ؟ قال: نذهب للحرب أما بنا وأما بهم ولا نرجع عنهم ولعلنا نظفر بهم فلما رأوا جانما مصمما على الحرب قالوا له:- أنت مجروح وليس لك قدرة على الحرب فقال لهم: أنا واحد وأنتم ألوف لا تحتاجون إلى واحد وكان المخاطب له أغاة اليكنجرية فلما سمعوا منه ذلك قالوا صدق في قوله فعدوا الى البر الغربى وطلعوا إلى موضع المعركة فرآهم الجراكسة فبادر وهم بالقتال والحرب وإلتطموا معهم . فبينما هم في قوة العرب إذا هم بالأمير شار بك الأعور قد دهمهم من خلفهم بعد أن أخذ المراكب التي على الساحل بجملتها فما أنفلت منه غير مركبين وأرسل الجميع مع عشرين جنديا إلى أوطاق السلطان طومان باي وأنطبقت على الروم الفرقتان من الجراكسة وهم كل فرقة منهم نحو الثمانية آلاف والروم نعو العشرين ألفا غير العربان فما مضى غير ساعة حتى أنكسرت الروم وقصدت المراكب فلم تجدها فأنقطعت قلوبهم وتبعتهم الجراكسة فأفنوهم وما نجا منهم سوى جانم وأبي حمزة وأغاة اليكنجرية المسمى باباس أغا فأنهم لما أنهزموا قصدوا المراكب فلم يجدوها فأطلقوا عنان خيلهم على شاطىء التيل فتبعهم قانصوه لكن كان بينه و بينهم مسافة رأي العين، فلم يدركهم فنجوا بأنفسهم فقط وجميع ما كان معهم من الفير بزانات والبندقيات وآلات الحرب و غيرها كله بجملته غنمته الجراكسة وأما جانم ورفقته فأنهم مازالوا رامحين على شاطىء النيل حتى لحقوا بالمركبين اللذين أنفلتا من الأمير شار بك فما صدقوا أن ينزلوا فيهما وأرتخوا في التيار فلما رآهم قانصوه العادلى قد طلعوا في المركبين أيس منهم ورجع متأسفا لكونه لم يبلغهم:وكان السلطان طومان باي أفتقد من قتل من عسكره فوجدهم ألفين وثلاثمائة غير العربان وكلهم من البندق فلما رجع جانم وأبو حمزة والأغا منهزمين وقتل غالب

عسكر هم وعلم السلطان سليم بذلك كاد أن يتفلق قلبه يكون في القسطنطينية وما مراد هذا الكافر الناجر هو وغيره والغورى وقايتباى كانوا مماليك لنا أي شيء كان لهم نسبه بالسلطنة، لا تليق السلطنة إلا لنا لأن أجدادنا سلطان أبن سلطان أبن سلطان إلى سيدنا نوح عليه السلام

وشغلنا الجهاد والقتال للكفار والروافض وأهل الطغيان والعدوان فقال له خاير بك: يا مولانا السلطان طومان باى رجل عاقل وأنا أعرف أنه ليس له رغبة أن يكون ملكا ولا له على السلطنة أستحقاق وإنما عبدكم الغورى أوصي جميع أمرائه أنه إذا أصابه شيء لا يسلطنون عليهم إلا طومان باي لما يعلم من عقله ودينه وفروسيته وشجاعته

فأنه فريد عصره و بعده شار بك الأعور، والأمير علان الذي قد مات وجاءني خيره أنه جاءته ضربزانة في فخذه كسبرته وكرتباى الوالي الذي قطعت رأسه فقال له السلطان سليم: أنت أغررتنى وطمتني في أخذ هذا الأقليم فأنظر كيف تصنع ودبر نفسك كيف تعرف وإلا فهيا برأسك وأغتاظ السلطان سليم من خاير بك غيظا عظيما فخرج من عنده وهو أعمى أصم لا يعلم كيف يصنع فلقيه يونس باشا الوزير الأعظم فقال له:- ما خبرك ؟ فأخبره بما قال له السلطان سليم فقال الوزير: والله صدق السلطان في قوله والله لو سمع قولى لأشرت عليه بأن ينادي في عدد كره بالرحيل ونرجع إلى بلادنا وأوطاننا وما نعرف كيف صارت أحوال بلادنا من هجوم الكفرة والرفضة فأنك لأجل غرضك وكراهيتك لأبناء جنسك جونتنا بين هؤلاء الملاعين وأبعدتنا عن بلادنا فخاف خاير بك على نفسه وحسب حساب يونس باشا أن يكرهه وربما يتكلم مع السلطان سليم في حق خاير بك ويقتله فأثنى خاير بك راجعا إلى خيمة السلطان وأستأذن فأذن له في الدخول فقال له السلطان: ما الذي دمرته من الرأي ؟ قال: فليعلم مولانا السلطان أني ما جئتك إلا راغبا في طاعتك ومحبة لك وآثرتك على جميع أبناء جنسي وقد أطلعت على بعض الملاحم فرأيت الرموز تدل على أنه ستملك هذا الأقليم وتصير سلطان الحرمين ولكن يا مولانا السلطان أريد منك فرد شيء وهو أنك لا تقبل في حقي كلام أحد إلا بما يقتضيه رأيك السديد فأن أقتضي رأيك أن تقتلني فأفعل،

فقد حللتك دمى فتبسم في وجهه السلطان، وقال له:- لولا تحققي محبتك ما أطعتك وجئت معك إلى هنا ولكن كن بنا في تدبير ما فيه الصلاح فقال: والله يا مولانا السلطان لا أبقى ممكنا في نصرتك ولو بروحي إلا فعلته أفشكره السلطان على ذلك، وأمر له بخلعة عظيمة أور فلما رجع من عند السلطان وهو لا بس الخلعة ورآه يونس باشا وهو قادم عليه علم أن خاير بك دخل على عقل السلطان ومشى معه على مراده فقام له و مجله ظاهرا مع الكراهة له باطنا

فقال له: ما الذي أقتضى رأي الأمير ؟

قال: ما يكون إلا خيرا وأرجو من الله تعالى أن يمكننا مرغ طومان باى ونأتي به أسيراً بين يدي السلطان فقال له يونس باشا: أن شاء الله تعالى يسعد دولة سلطاننا فلما رجع جانم وأبو حمزة وأياس أغا إلى أوطاق السلطان سليم تكدر السلطان و تدم على إرسال جانم ثم أنه عمل ديوانا فلما حضرته الوزراء والأسراء قال: أين خاير بك؟ فجاء ووقف بين يدي السلطان، فقال له:- ما تقول ؟ قال: الأمر أمرك ونحن بين يديك مهما أمرتنا به فعلناه، ولو كان فيه هلاك أرواحنا . قال السلطان

آن قلبى حس من الأول أن جانما ليس هو كفؤا لطومان باي ولكن أنا أريد أن أرسل له كتابا بالأمان مع قاصد عاقل يرد الجواب فلعل الله أن يهديه ونبقيه على بلاده وأخبره أني رضيت منه بالإسم فقط بأن أصير سلطان الحرمين وتصير لي مزية على ملوك الأرض ويجعل الخطية والسكة بأسمي، وأعملى له مصير إلى أن يموت فقال خاير بك: يفعل مولانا السلطان ما يقتضيه رأيه في إرسال الأولاقي، ولكن أنا أعرف أنه معاند وجاهل لا يوافق على شيء من ذلك، وربما يقتل القاصد فقال السلطان: إذا لم يوافق وإلا أنا ألقاه بنفسي والله يؤيد بنصره من يشاء فعند ذلك أرسل قاصدا يسمى مصطفى، وكان عارفا عاقلا طلق اللسان أديبا وأرسل معه أيضا خمسمائة نفس لأن الطريق كانت مخيفة من العربان فلما وصل إلى أوطاق السلطان طومان باي و كان بالقرب من ناحية منية أبن خصيم ترجل عن فرسه ونزل هو وجميع من معه فأستأذن في الأجتماع على السلطان فأذن له فأوصل المكاتيب للسلطان لومانياى فقرأها وأعطاها للأمير شار بك

فأنه قد أرسل لكل أمير كتابا بخصوصه يخبرهم بأنه لا حاجة له ببلادهم وأنه ما يريد إلا الأسم فقط وأن كل أين قابله خلع عليه وأعطاه مرسوما بالأمان وأنتم على ما أنتم عليه وأنتم في أمان الله تعالى: والله يخون الخائن: وأوثق كلامه بأيمان وأقسام فقال السلطان طومانب اي: ما تقولون يا أغوات ؟ فقال الأمير شار بك: أما رأيى فقتل هؤلاء الطائفة التي ساقتها الأقدار الألهية إلينا لنكتفي من شرهم وأما أنت أن مالت نفسك إلى طاعة عدوك فأعلم أن ما بينك و بين الهلاك إلا أن تصل إليه وتقف بين يديه فتصير الأمانة خيانة والعزة أهانة

وتكون كالذي ألقى بنفسه إلى التهلكة وطلب منها السلامة وندم حيث لا تفيد الندامة وأما أنا فلا أدخل تحت أمان العدو في عمري ولا مرة واحدة وذلك لأني أعرف أن ما آخر كل حياة إلا الممات وقد جعل الله تعالى لكل شيء ميقاتا فأن دخلت تحت طاعته لا يزيد في عمرى لعلمي أنه الموت لا مفر منه وأن كل حي لا بد له من الموت أفاقتضي رأيهم أن يقبضوا على القاعد الذي جاءهم ومن معه وأن يضربوا رقاب الأولاقية فهرب الذين جاءوا معه إلى السلطان سليم ثم أمر السلطان طومان باي بالمسير إلى جهته، فلم يزالوا سائين حتى أشرفوا على بركة الحيش فرأوا بها أوطاق السلطان سليم وهم من ذلك البر على بعد فوقفوا ينظرون ويتأملون ويضربون الرأي كيف يصنعون وعلموا أن السلطان سليم إنما خرج إلى بركة الحبش مريدا للحرب ويريد أن يعدى إلى بر الجيزة

فبينما هم واقفون إذا بكردوس من الخيل قادم إليهم وإذا به الأمير رزمك الناشف فقدم على السلطان طومان باي وقبل يديه وأعتذر له بأنه كان معذورا بسبب جراحة أصابته يوم الريدانية وأخبره قانبردى الغزالي كان رأس الملاحين عليهم حين أخرجوا المدافع وأمرهم برد مهم تحت الرمل وكان هذا غاية المعاكسة لهم فقال السلطان طومان باي والله إني عرفت أنه ملاحى علينا من أول مرة لما أرسلته بالجيش فقتل أكثره وأنهزم فعلمت أنه بالقصد منه وأما السلطان سليم فأنه لما جاءه جانم وأبو حمزة منهزمين وأخبراه بما جرى لهم وأن السلطان طومان باى قادم بجموعة التي جمعها فأرتاب السلطان سليم فعند ذلك أمر يونس باشا بأن يرسل و يأتي بالأمراء المسوكين

عندهم فأنهم كانوا قد نادوا لهم بالأمان وكان ذلك مكيدة من خاير بك فيقوا كل من يأتيهم بالأمان يحبسونه ويوعدهم خابير بك بأنه إذا تم الأمر للسلطان سليم يطلقهم ويبقيهم على مراتبهم ومناصبهم التي كانوا عليها و باطنه بخلاف ذلك فلما جاءت الأخبار للسلطان سليم بأن السلطان طومان باى قتل القاصد الذي أرسله السلطان سليم وجميع أمن معه أغتاظ لذلك غيظاً كبيراً وأرسل أحضر الأمراء المحبوسين بقلعة الجبل من الجراسة وأمر بضرب أعناقهم أجمعين وكانوا نحو الستين أميرا منهم ما هو أمير مائة مقدم ألف ومنهم من هو أمير أربعين ومنهم من هو أمير عشيرة فلما حضروا بين يديه سألهم عن صاحبهم فأخبروه فقال لهم السلطان سليم لم تركتم ملككم وجئتم إلى عدوكم ؟

قالوا: آثرنا خدمتك على طاعته وأخترنا أن نكون من أجنادك فقال: لو كان فيكم خير كان لطومان باى فعند ذلك أمر بضرب أعناقهم بين يديه وهو ينظر فأول من ضرب عنقه تقطباى نائب القلعة ثم أنس باى حاجب الحجاب ثم تثمر الزردكاش ثم أر گماس أمير سلاح ثم الأمير أزبك المكحل صاحب البيت الذي كان فيه المرحوم الأمير عثمان قائم مقام ثم الأمير قانصوه الفاجر ثم الأمير مغلباي الزردكاش ثم الأمير قاياناك رأس نوبة ثم الأمير ماماي المحتسب وهو صاحب بيت قاضي المعسكر ثم الأمير يشبك ملوخية ثم جانبلاط الأبج وكان قد عمله السلعلان طومان باى نائب القلعة ثم الأمير خاير بك الخازندار ثم خاير بك المعمار ثم بقية الأمراء الذين كانوا جاءوا له بالأمان حتى صار الموضع كالمجزرة ثم أمر السلطان سليم بالتعدية الى البر الغربى فكانت كل تعدية يكون فيها نحو الألفين أو أكثر من الروم وأما السلطان طومان باى فأنه كان واقفا يترقب توربوة عالية وأقام واحدا ينظر له الخبر:

فلما أخبره بأن الروم وصلت الى البر قال في نفسه أحسن ما يكون أن أقطعهم أولا بأول فعند ذلك رمح عليهم رمحة واحدة، فما شعروا إلا وهو كابس عليهم وأوقع القتل فيهم، فما وصلت التعدية الثانية إلا وقد أفني غالب الأولى فارنج عسكر السلطان سليم وتشتت أمرهم، فمنهم من قتل ومنهم من أنقلبت بهم المراكب بما فيها فحصل للسلطان

كرب عظيم وندم على فعله ذلك وقال:- لو أشار على أحد بذلك لقتلته أشد قتلة ولكن يهون الله تعالى فعند ذلك أمر ألا يعدي أحد وأن يضعوا ضربزأتات على شاطىء النيل ويرموا بها على الذي في ذلك البر من الجراكسة فرموا عليهم طلقا أودت به الدنيا فبينما هم في تلك الحالة وإذا هم بغبار قد طار من خلف أظهرهم وصيحات وعيطات وخيل قد ملأت الوادي فوقفوا ينظرون ما هذا الأمر فلما قربوا منهم وإذا بهم عرب غزالة يتقدمهم الحاد بن خبير وأخوه سلام وكان سلام هذا بطلاً لا يطاق فبادروا السلطان طومان باي بالسب والشتم والكف عن محاربة السلطان سليم وقالوا له أن لم ترجع عن محاربة السلطان سليم وإلا كنا كلنا عليك ونأخذك مواسطة ولكن أرجع إلى حيث شئت وأخرج من أرض مصر فأنكم أقد قتلتم منا خلقا كثيرا في أيام ولايتكم وما منا من أحد إلا وله أحد قد قتلتموه أما أخوه وأما أبوه وأما قريبه وقد أزال الله تعالى دولتكم وجاء بهذا الملك العادل

فقال لهم لومانياى: ستنظرون أرواحكم بعدنا وكان السلطان طومان باي وانثني راجعا بعد أن خادعهم بالكلام فلم يقبلوا منه قولاً واحدا فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم أعلموا يا أغوات أن دولتنا قد زالت وآجالنا قد مالت وما بقي لنا في هذه الديار نصيب ولكن لنا أسوة بمن كان قبلنا وأنظروا إلى هذه الحالة وما النصر إلا من عند الله وقرأ قوله تعالى: « أن ينصركم الله فلا غالب لكم، وأإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ..» فما الرأي عندكم؟ قالوا له: الرأي ما تراه وها نحن بين يديك كل ما تفعله نحن موافقون لك عليه فقال لهم: سيروا بنا الى جهة الهرم فساروا فينما هم سائرون وإذا بكردوس من الخيل قدموا عليه فأرسل ينظر من هؤلاء وإذا به الأمير قيت رحبي الذي كان محبوسا بالأسكندرية وقد كان حبسه السلطان الغورى وكتب على قيده: «مخلد»، فلما تسلطن طومان باى وحصل له ما حصل تذكر قيت رحبي وكان من الفرسان المجنورة فقال: أحق ما يكون أن أرسل فأطلق قيت رحبى وأخلع عليه ليكون لنا عونا على هؤلاء الأعداء فكان مجيئه في ذلك الوقت فقيل يد السلطان طومان باي وتلقته الأمراء ولبسوه خلية السلطان وسار معهم إلى جهة أهرام الجيزة وبكوا

بكاء كثيرا، وحكوا له ما وقع للغورى، وما جرى لهم من أوله إلى آخره فقال لهم: بالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ولا تستعينوا إلا بالله، وكان من أهل الرأي والدين وكان قارئاً كاتباً عارفاً بأنداب الحرب ولهذا حبسة السلطان الغورى خوفا من أن يد بر عليه أمرا ثم قال الأمير فيت رحبي: يا مولانا السلطان أختير عندي أن نجعل هذه الواقعة نظماً ونكتبها على هذا الهرم ليكون لنا بها الذكر على ممر الدهور والأيام وكان بازاء يام وكان بازار الأهرام فقام السلطان والأمراء إلى الهرم الغربي فوقفوا عنده قال الناقل: فأخذ وشرع السلطان طومان باي ينشد والأمير قيت رحبي يسمع والأمير شار بك يكتب على الهرم هذه الأبيات التي جاءت من أحسن المعلقات تتضمن جميع ما جرى لهم من أول الحرب الى آخره نظما حسنا وهي هذه الأبيات:

دموع العين فاضت من ماقي وقلبي ذاب من كثر أحتراق

فلا ناري طفاها دمع عيني ولا دمعي يفيض من أختناق

وبى أسف على أسف وحزن وهم فوق هم وأشتياق

على زمن تقضي في نعيم بمصر والعلا والعزراق

وشمس السعد في شرف المعالي وبدر الضد في درج المحاق

ولما أن أراد الله هذا أتانا الروم من جهة العراق

وسلطان الجميع سليم شاه عظيم الملتقى مر المذاق

وكان الماجد الغورى منا مليكا شبه بحر في أندفاق

وقد قاد الجيوش لنحو حرب وكان المرج وعدا للتلاقي

وكان الحرب يوم الحد لكن تولى جيشنا والحرب باق

وسلطان لنا أضحى قتيلا طريحا والدها في الأنهراق

وكان الخائن الكلب الغزالي وخاير بك المبوطن في النفاق

هما أصل الهزيمة عن حقيق إلى حلب كفيل في سباق

وسار الجيش من حلب لمصر وزاد الكرب مع ضيق الخناق

وعند حماة خاير بك المنام رجع ليدونا بيغى شقاق

وفي الشام الغزالي كاد كيدا وأيرك عاقه كل العواق

وساروا بعدها سيرا حثيثا لغزة ثم مصر في الحاق

ولا أستجمعوا في مصر قالوا نسلطن أيكم لعدو واق

ولو أينا أهل لهذا براى الفيل ع نالمواق

وسيرنا الشريعة معظم جيش عشرة آلاف فرسان أستباق

وقدمنا على الكل الغزالي ولم يعلم بسيسوم الأختلاق

فأختار الهزيمة وهو سأل سلاح الحرب خوفا من دهاق

وجاءتنارجال الروم مصرا وقد حازوا البلاد مع الآفاق

خرجنا بالجموع لنلتقيهم وكان الشر يوم الحوب راق

وفي المدافع قام قومى وزادوا في الخصام وفي الخناق

وقد جاءت علينا الروم زحفا كبحر مالح في الأندفاق

وزاد الرمي بالب أرود حتى حسيت الرعد محلول الطلاق

وأطبق كل ناحية وفسج وأشبال والمشقة والدقاق

وقلت لكرتي أى ترى الأعادي علينا كالسحاب على الشراق

وقلت إلى الفتى علان خفنا فليس لنا من الأحيا بواق

فقال اليوم تصلبها بطعن تموت الناس والتذكار باق

وقمنا بعد ذلك قد حملنا كأسدلا تخاف ولا توافي

قتلنا من ملوكهم ثلاثة وأستقيناهم كأس الرهاق

ولما قد رأوا ذا الفعل منا أتونا كالجب الأعلى أنطباق

فأسقيناهم كأس المنايا فخروا الثرى كنت مساق

وبددت الفوارس في مجالي بطعن في الصدور وفي الأماق

وعدنا عودة للأبدلما أتوا بالصيد من قلب الوطاق

وقد حسبنا الغزالي قد تولى وإأختار الهزيمة بالنفاق

وفي علان جاءت ضرب زان وكان به المنية والفراق

فوا أسفا عليه وقد تولى وودعني وداع الأفتراق

تظل العين باكية علي بدمع لا يمل كما السواقي

وجاء بركبتيه كمثل هذا وصار الفخذ منه كالنطاق

كذلك جانبلاط غدا طريحا أبو يس في الشجعان راقي

وأما قانصوه أمير قطيا فلم يوقه بيوم الصرب واق

وكم قد رمت قتل سليم شياه فلم يبارزنى وحر الحرب باقى

وأقدم لو أراه غدا قتيلا بسيفي المورقي سبعا طباق

ولما أن رأيت الحرب دارت على وقد نأى منى رفاقى

فولدت الجواد لنحو مصر وحسيت الفئة والله باقى

وعند طرا أتانا الجيش جمعا وسرنا الشرق يا بائس الشراق

وعدينا لمصر لأجل حرب كسبنا الروم والديجور باق

قتلنا منهم جمعا غزيرا بضربات المهندة الرقاق

ثلاثين بأن القتل فيهم وفينا والساكر في محاق

وقومي قد أرادوا يغدرونى ويرموني أسيرا في وثاق

وشاربك أحتمى عني بسيف وكان بنفسه لي خير واق

جزاه الله على كل خير وكان له رحيق المسكساق

ورحنا قلقشنده ثم عدنا وصرت أجد من عظم أشتياق

وجدنا جانا أمسى قتيلا وفوق الألف معه في رهاق

فقلت لشار بك أذهب سايما وأحذر من تطبيقات الحماق

فأن أعد أعتا جمعظيم كمثل البحر زايد في تراق

فقال اليوم نص ليها بطعن كمثل السملا ينفعه راق

وقاتلنا الجموع وقاتلونا ونحن على المضرة والعناق

وبعد الظهر جاءتنا جيوش عداد الرمل جمعافي أنطباق

وزلزلت البلاد بهم إلى أن حسبت الحشر قام مع التلاقي

فقلت لمرفقتي خلوا وقلوا وولينا جميعا بأفتراق

دخلت البيت نحميه لقانا جموع من نسانا في زعاق

وقاموا في ضجيج مع نحيب وجاءتني خوند بثوب طاق

قالت لي تخلفناعلى من وليس لنا ثرى في الحي واق

وتهرب من ذئاب وأنت ليث طويل الناب والمخلاب باق

أوفيك السابقات لكل خير وفيك اللاحقات مع البواقي

فخلصنا من الأورام ياذا فأنا في مضيق وأنفلاق

فقلت لهم ورب البيت إني صبوح الضرب بالبيض الرقاق

أحب إلي من شرب الملاهي على كس وإبريق وساق

وشرب دما الفوارس كل يوم مداهى وأصطباحي وأعتباق

وأتي أن ذهبت إلى إعتذار لقد قلت جموعى مع رفاق

وعنتر غاب عن عبلة سنينا بقيد الأسر في أرض العراق

ونام الزير دهرا عن كليب وبعد سنين جالما بلاق

وأن النيل بعلو بعد نقص ويرقي الأوج من بعد أنسحاق

وأن الليث يهرب من لهيب ويرجع رجعة كالسهم فاق

وإني بعرف أمضى ثم أتي گرجعة عنتر يوم الس باق

فعادت وهي نادية بقهر تضج الضج من ألم الفراق

وقالت ياطومان باي المفدى فراقك عندنا مر المذاق

فسافر في امان الله اني ودعتك اللذي رفع الطباق

فرجعت الجواد ودمع عيني كسيل سال من بحر الأماق

وسافرت الصعيد فحوت جيشا كما قالوا راقا فوق راق

وجانم قد أتى وبدا بحرب فولى هاربا دون الزقاق

وسرت لنحو مصر في جيوش تقاد مع الحمولة والنياق

ورزمك قد لقاني في طريق فياله ماجد طلق أنطلاق

وصبحنا جيوش الروم صبحا على الجود المضمرة العتاق

وزدنا القتل حتى كل سيفي وأشكل نيل مصر بأنهراق

وقد رمنا نعدي البحر لكن غزالة قد آتونا في أستباق

وراموا حربنا ويقوا علينا وأن البغي الشام الأختلاق

فعدنا عن قتال الروم قهراً لقيناقبت سيد من يلاقي

وعلقنا على الأهرام شعراً كنظم الدر في حسن الشاق

قال الراوي:فأقتفى رأى السلطان طومان باي ومن معه من الأمراء أن يدخلوا إلى دهشور وينادي في البلاد أن الخراج بطال ثلاث سنين وأنه من أراد القتال ونصرة السلطان طومان باي فليسرع إلينا وله ما لنا وعليه ما علينا فلما كان كذلك أجتمع لهم عالم عظيم من عرب وفلاحين وغيرهم ثم أقتضى رأيهم أن الأمير شار بك يكون باشاعلى عشرة آلاف فارس راكب و ماش إلى قتال السلطان سليم في أي محل صادفه فيه وأن السلطان طومان باي يستمر في دهشور حتى يأتيه الخبر من شار بك هذا ما كان من أمر هؤلاء وأما ما كان من أمر السلطان سليم فأنه ضاق صدره وندم على دخوله مصر وخشي أن يطول عليه المطال ويدخل عليه الشتاء وينقطع عنه خير بلاده وخشي من أمر النصارى أن يدبروا أمرا في غيبته على أخذ الممالك الأسلامية فأشتغل فكره ودخل عليه الوسواس فنرى أن يبطش بخاير بك فأنه هو الذي حسن إليه التوجه في أخذ مصر وخصوصا وعده السلطان أن يجعله باشا على مصر إلى أن يموت فبينما هو في هذا التفكر وقد دخل عليه الوزراء وأخبروه أن بلاد الأطفيحية خرجت عن طاعة السلطان سليم وقامت العربان كلها على ساق لنصرة السلطان طومان باي فأزداد غماً على غمه فأقتضى الرأي أن يرسلوا تجريدة تمهد العربان وتأمرهم بطاعة السلطان سليم وأنه ما قصده إلا عمارة البلاد وأنه لا يحصل منه أذية لأحد من العرب ولا من الفلاحين وأن كل من شائد أو خالف ليس له جواب الأفقال السلطان: من يكون سردارا على التجريدة ؟ فقال: كل من أختاره السلطان فقال: يكون قا نبردى الغزالى، فأنه يعرف بأمر هذه البلاد و بقتال العربان فلما حضر أمره السلطان بذلك فأجاب بالسمع والطاعة وقال أمر المريان هذا . أسهل ما يكون ولا يهم مولانا السلطان بشيء من ذلك أبداً قال الشيخ أحمد بن زنبل الرمال: أن السبب في وصول الغزالى إلى طاعة السلطان سليم هو أنه لما

عاكس السلطان طومان باي في أمر المدافع وغطوها بالرمال عناداً وتكبراً منه ومن بعض الأمراء فلما حصل ما حصل من الهزيمة في وقعة الريدانية وأنهزم من جملة من

أنهزم وحسداً منه للسلطان طومان باي وكان قصده أن يتسلطن هو فلما أقتضى رأي الأمير علان والأمير شار بك الأعور والأمير كرتباى الوالى والأمير قانصوه العادلى والأمير أبرك رأس الجلبان و بقية الأمراء والأعيان أن يسللنوا طومان باى لا يعلمون من فروسيته وشجاعته وديانته وأنسانيته وتواضعه وزهده في الدنيا وعدم التكبر والتجبر وليس يستحق السلطنة إلا هو فلما كان كذلك غلب الحسد قلب قانبردى الغزالي والبعض الأبناء جنسه حيث أنهم لم يؤهلوه للسلطنة وقدموا عليه طومان باي وكان أحق بها وأهلها نسبة إلى غيره والغزالى أخذ يعاكسهم في كل أمر ديروه و بيخطىء رأيهم فيما يفعلونه بالا فيلم السلطان طومان باي والأمير علان أنه ملاح عليهما فأراد الأمير علان أن يبطش بقانبردى الغزالى فقال له السلطان طومانب اي: لا تفعل فقال له: أما تنظر إلى معاكسته لنا وعتاده قال: أختي أنك أن قتلته ربما تقع الفتنة في عسكرنا وينخرم نظامنا ولكن أصبر إلى ثاني مرة وما يكون إلا ما يريده الله تعالى ولا يغلب الله غالب، والله سبحانه وتعالى يعلم أننا ليس لنا رغبة في قتل أحد، وانما هؤلاء القوم بغوا علينا ويريدون أن يأخذوا بلادنا وأموالنا وأولادنا ويهتكوا حريمنا، فوجب علينا أن ندفع عن أنفسنا وعن أموالنا وأهلنا وأولادنا، دع كل من قدر على شيء أن يفعله، والله يفعل ما يشاء فقال الأمير علان والأمير شار بك: والله مادام هذا الخبيث الولد الزنا بيننا لا يقام لنا نظام أبدا، ومادام خاير بك مع عدونا لا يرد الخصم عنا أبدا فقال السلطان طومان باي: والله ثم والله، ليس لي رغبة في سلطنتي وانما أنا واحد منكم، ولولا أنكم أخترتمونى وألزمتموني بذلك ما طاوعتكم في شيء من ذلك، ولكن لله التدبير فلما أنهزم قانبردي الغزالى تبعه أثنا عشر أميرا فصادف منهم الأمير سودون الدوادارى ضرب زان، أخذ فخذه فسار معهم إلى قليوب وهو بلا فخذ، فتصفى دمه فمات هناك ودفن بها فجاء بعد ذلك على باي و أخرجه من قبره وحمله إلى مصر ودفنه في تربته وسار الأمير قانبردى الغزالى ومعه أحد عشر أميرا، وكان من جملتهم رزمك الناشف إلى أن وصلوا إلى الأمير أحمد بن بقر فخرج إلى لقائهم ورحب بهم، وأقام بخدمتهم -وما زالوا عنده والأخبار ترد عليهم .

وشاع ذكر طومان باي وما ظهر منه من الفروسية وما فعله في عسكر السلطان

سليم، ومن قتل منهم، وكذلك طبيعة الأجتماع الملوكى (العبيد البيض) بأسم بأستخدام الحافظ تشير دائما إلى الأم وتتهمها ربما بما ليس فيها الأمير شار بك الأعور، والأمير قانصوه العادلي وغيرهما من الأعيان الذين تبعوا السلطان طومان باي . فحصل عندهم الغيرة من ذلك فان الجراكسة كانوا قوما نفوسهم شامخة، وأعطاهم الله الشجاعة والفروسية، وكانت هي فخرتهم، فكان كل منهم تحدثه نفسه إنما يكون السلطان إلا هو، فلهذا أخذوا عن دابرهم، فأن أخذ الملك ليس كان عندهم إلا بالشجاعة والملك ليس بقوة وإنما هو أمر إلهي يعطيه الله لمن يشاء الله من عباده ولما ترادفت الأخبار بما فعله طومانباى، صاروا يتعجبون عن ذلك، فأن طومان باي ما كان مشهورا عندهم إلا بالدين والصلاح، وكان الذي ينظره بهذه السكينة والوقار لا يشك في صلاحه، وكان محبوب الثورة عند كل أحد فلما صارت منه هذه الشجاعة والفروسية صاروا يتعجبون فقال لهم الأمير رزمك الناشف: أنا سمعت قول القائل: الشجاعة صبر ساعة . فقالوا له: صدقت يا أمير، لكن من يصبر على ملاقاة هذه النيران وضرب الزانات والبندقيات ؟ ولو كانوا مثلنا يقاتلون على ظهور الخيل كان الواحد منا يقاتل منهم مائة ومائتين، لأنهم ليس عندهم معرفة في ركوب الخيل ولا الجولان في الميدان فقال الأمير رزمك: الحي ما له قاتل وقال في نفسه: ما ثمرة بقائنا في هذا المحل وسلطاننا يقاتل بنفسه والله ليس هذا من المروعة ونوى على الذهاب إلى السلطان طومان باي وبات ما أصبح ففتش علية الغزالي، فلم يجده، فعلم أنه سار إلى السلطان طومان باي، فخشي أنه أن قام يوما آخر رجعت بقية الأمراء الى طومان باي، وتخبره بمحل الغزالي الذي هو فية فقال في نفسه، وتكلم مع الأمراء الذين معه، وقال يا أغوات، أعلموا أن دولتنا قد ولت، وما بقيت هذه البلاد إلا لهذا الملك والأولى والأحسن أن نذهب إليه وتأخذ له أماناً، فإذا صرنا في أمانه أمنا على أنفسنا وأموالنا وحريمنا، وأيضا ليس هو مقيما في هذا الأقليم، فأنه حيث تمكن من البلاد بأخذها وقتل طومان باي، وأقام خاير بك نائبا عنه، ذهب إلى بلاده، فإذا ذهب عنا بقيت البلاد في أيدينا نتصرف فيها كيف نشاء قالوا له: ومن أين لنا أنه يعطينا الأمان ؟ قال لهم: أنا أضمن لكم ذلك،

فأن بينى و بين خاير بك أتفاقا باطناً لا يعلم به أحد إلا أنا وهو فعند ذلك أطاعوه

وذهبوا معه إلى أن وصلوا إلى كيمان ففرح خاير بك بذلك فرحاً شديداً، وذهب إلى حضرة السلطان سليم و أخبره بذلك:

ففرح السلطان أيضا فرحا عظيما، وأرسل له خاير بك والوزراء و أعيان دولته، فتلقوه، ودخل من باب القنطرة في موكب عظيم، وخلع عليه خلعة عظيمة من أعظم خلع الملوك وقابل السلطان سليم، ورحب به وأمنه، وأمن جميع الأمراء الذين كانوا معه، وصار معززاً مكرماً عند السلطان سليم وعند عسكره ونرجع إلى سياق الحديث قال: فلما أخبروا السلطان سليم أن المر بأن قامت على ساق، وعصوا وخرجوا عن طاعة السلطان، أقتضى رأي السلطان في آن سال تجريدة، فأرسل الغزالي باشا على العسكر، وكان معه خمسمائة فارس من الجراكسة وخمسمائة رامي بندق من اليكتجرية الى بر الأطفيحية فلما وصل إلى أطفيح ورأى البلاد كلها قائمة على ساق، والعربان مجمعة، ورأوه، قصدوه و بادروه بالسب والشتم، ثم وقع بينهم الحرب فكانت الكسرة على العرب فأنه بادر برمى البندق، فلم يثبتوا لذلك فولوا هاربين، فتقفاهم ومزقهم كل ممزق وشتتهم وأمر بنهب نجوعهم وحريمهم وأولادهم، وأرسل جميع ذلك إلى السلطان سليم، فأمر ببيعهم في الرميلة فبيعت النساء والأولاد الأحرار كما يباع الرقيق ولكن بأبخس قيمة، فصارت الناس كل من كان في قلبه رحمة يشتري منهم الذي يشتريه ويعتقونهم في الوقت ووقع على الغزالي من دعاء العامة ما لا يحصي عدداً حتى دعت عليه اليهود والنصارى ولما سمعت العربان بذلك عصت جميعا وكذلك العسير والحوف وكان سيدي يحيى أبن الأمير ازبك صاحب بركة الأزبكية لما كانت وقعة الريدانية، وأنهزمت الجراكسة في على ظهر فرسه إلى بلاد بني حرام، و كان بينه وبينهم مصاهرة، وتم مقيما عندهم والأخبار تنتقل إليه وترد عليه وقلبه مع طومان باي ولكن لا وصول له إليه قلما كان كذلك وعصت جميع العربان والبلاد رأي له طريقا إلى الخروج فصار هو وبنو حرام يخرجون ويدورون في البلاد والطرقات حتى وصلوا إلى باب النصر وباب الشعرية وكل من وجدوه روميا قتلوه فقتل من الأروام خلقا كثيرا خصوصا من الأروام الذين يسمون عجم أو علان فأنهم كانوا يدورون ينهبون كل إلا أما يجدونه من مأكل أو غيره،

فكانت الزعر والفلاوية وحسن القتل في ذلك الزمن وكان سيدي يحيى أبن الأمير أزبك شجاعاً عظيماً وكان من الفرسان المخبورة حتى أجمعت الناس على أنها كان فريد عصره ووحيد دهره في كل فن من فنون الحرب وكان فيه محاسن تفوق عن الوصف فلما سمع بأن السلطان طومان باى يقاتل السلطان سليم عند المناواة ورحل عنها الى دهشور، وأنه جعل الأمير شار بك الدودار الكبير مقام نفسه في جميع

أموره، وأشترط على نفسه أن أيده الله تعالى بنصره جعله ولى السلطنة من بعده لأجل ما نظر من شجاعته وقوته في الحرب فعند ذلك قام سيدي يحيى أبن الأمير أزبك وشزم على التوجه إلى السلطان طومان باى وعدى من بر الشرق إلى بر الغرب وتم سائراً وكل من تلقاه من العربان يترحب به ويفرح به ويلتم إليه فأنه كان مشهوراً ومخبوراً عندهم بالفروسية فلا زال سائرا حتى وصل إلى دهشور، وأجتمع بالسلطان طومان باى، ففرح به السلطان وسأله عن حاله فأخبره بما فعله هو ويتو حرام من قتل الأروام، فشكره السلطان على ذلك وأمره أن يكون مع الأمير شار بك من أصحاب المراتب وقال الراوي: هذا ما كان من أمر هؤلاء وأما ما كان من أمر السلطان سليم فأنه لما نظر إلى هذه الأمور المفزعة والأحوال المضطربة خاف على نفسه وضاق صدره من أجل ذلك وتحير في أمره، فقال لأرباب دولته: ماذا تقولون في هذه الطائفة القليلة ؛ كلما أقول أن أمورهم هانت فما أراها ألا تزيد في كل يوم، وقد حصل لنا منهم غاية الضرر فقال يونس باشا: والله كان رجوعنا من الشام هو الصواب، إلا أن خاير بك لما أنه وعدته بأن يكون ملك مصر مادام حياً صار يدبر في تحصيل مراده، ولا قدرة له على ذلك، فهو يحسن لمولانا السلطان العبارة، ويسهل لك الأمور، و يظهر لك أن ما قصده إلا أن تكون البلاد بلادك، والحال أنه في باطن الأمر أنما يستعين بك على بلوغ مراده وهو هلاك أبناء جنسه وأستقلاله هو بالبلاد والملك وترجع أنت ومن معك أن سلمنا ويستقل هو بالبلاد لنفسه، وقد طمعت آماله بأنك لا تأخذ منه مالاً أبداً، فهو مجتهد في ذلك غاية الأجتهاد أفحصل عند السلطان سليم تغير عظيم على خاير بك حتى أيقنوا أجمعين بأنه لا يبقى عليه أبدا وكان يونس باشا الذي هو الوزير الأعظم يكره خاير بك في الباطن لما رأى منه من قلة الخير في حق أبناء جنسه، وكان ليونس باشا من الأخلاق الحميدة والأوصاف

الجميلة ما يفوق الوصف، وكان يعرف أن خاير بك ما قصده إلا بلوغ مراده،

ولكنه دخل في عقل السلطان سليم وصار يعنى لقوله وصار السلطان مستحيرا آن هو قتل خاير بك وهو متجون في مصر قامت عليه جميع البلاد من الشرق والغرب فقال السلطان سليم لأرباب دولته: إنا نحن قد أخذنا ارض هؤلاء القوم وسبينا حريمهم وقتلنا أكابرهم فماذا نريد بعد هذا ؟ وكفي ما جرى، وصار الأحسن فيما أرى أن نجعل بيننا وبينهم صلحا ونترك لهم بلادهم .

فأشاروا عليه بإرسال خوشقدم فقال لهم: حبا وكرامة، ولكن إذا لم يوافقوا على

ذلك، وإلا كنت أنا أول من يقاتلهم ثم خرج من عند السلطان سليم فطلبه يونس باشا ووصاه بألا يغلظ عليهم في الكلام فأن الكلام اللين تقبله النفوس فلما وصل خوشقدم إلى دهشور رأي جيشاً عظيماً وخيلاً كثيرة فلما وصل إليه فإذا به بالأمير شار بك ومعه هذه العساكر وهو قاصد قتال السلطان سليم فلما أجتمع به ووقعت العين في العين قال خوشقدم: يا معاشر الأمراء والسادات إني أريد الأمير شار بك وأتكلم معه أنا وهو فيما يكون فيه الصلاح لنا ولكم فتقدم الأمير شار بك وعن يمينه الأمير أبرك رأس الجلبان، وعن يساره قانصوه العادلى والأمير قلج، وحركوا خيولهم، وقد خرجوا عن قومهم حتى إلتقوا بالأمير خوشقدم وصار بينهم قدر ومحين فكان البادي بالسلام الأمير شار بك فرد عليه خوشقدم السلام فقال الأمير شار بك:ما معك أيها الأمير ؟ وفي أي شيء جئت ؟ فقال: جئت في الصلح بيتكم و بين هذا الملك الذي هو سليم شاه الذي هو أعظم ملوك الأرض، ولست أرى لكم أن تعادوه، والرأي عندي أن تدخلوا تحت طاعته أحسن من أن تصيروا في قبضته وتذوقوا بين يديه العذاب، ويقطع منكم الرقاب، لأنه أرحم عليكم وأنتم أرحم على أرواحكم و أرقا بكم وأولادكم ونسائكم وعيالكم، فكفوا شره عنكم فقال الأمير شاربك: أما أنت فأمرك أمر عجيب فقال: لماذا ؟ قال: لأنك كنت تقول قبل هذا الملك الذي يقول أنه أعظم سلوك الأرض أن جاء من الروم إلى أرضنا أول من يقاتله أنا وأكون فداء لأبناء جنسي جميعا، فلما ذهبنا إلى شرق أطفيح ورجعنا إلى حرب عدونا وضربنا الرأي آن نكبس عليهم ليلا فهربت أنت منا

ورجعت إلى عدونا الذي كنت تقول إنك أول من يقاتله وأخبرته بما دبرنا، وأطلعته على ما أضمرناه، فلا أدري أفعلت ذلك من جين في قلبك أو خلل في عقلك وأعجب من هذا أنك جنت اليوم تزعم أنك تريد الصلح فلا ندري أخصدم أنت أم حكم ؟

فقال له خوشقدم: صحيح أني فعلت ذلك، وما فعلته (ليس) أجينا من الحرب ولا خوفا من الطعن والضرب وأنما فعلت ذلك لما أني رأيتك صرت دو أدارا كبيراً، وتعاليت علينا هذا العلم الزائد كر هنا أن نكون تحت أمرك، وأن تنقاد لقولك وفعلك فقال له الأمير شار بك - من حسن عقله وحلاوة لسانه وطول روحه وأدبه في جوابه:- والله يا أمير خوشقدم لو أخذت ألت هذه الوظيفة التي حسدتني عليها لكنت أول من يخدمك فيها، ويقوم بحوائجك فقال له خوشقدم بعد أن خجل منه وأستحيا والله أننا كنا حسدناك عليها، ولكن لما سمعنا عنك

ما لم نصدقه من الشجاعة والفروسية، ورأينا ذلك عيانا قلنا والله أنه أحق بها وأهلها، ولولا أن السلطان طومان باى يعلم عنه أنه يستحق ذلك ما أعطاه له، ولكن هذا قلج، من أين حتى يكون في مرتبة كرتباى الوالي فلما سمع الأمير قلج منه هذا الكلام ما ساعه عقله أن يسكت عن الجواب فقال له: والله لو علم الله فيك خيراً أعطاك أعلى منا ولكن الله تعالى علم أنك رجل خائن خارج عن حدك مارق عن أبناء جنسك . فلما سمع خوشقدم ذلك الكلام أنحرف مزاجه، وكان عنده طيشان عقل، وخرجت منه الحدة، فثلث قنطاريته وطعن الأمير قلب طعنة بقوة عزمه يريد بها هلاكه، فأخلى عنها بمعرفته، فراحت في البطال، ومن شدة الطعنة كاد أن يسقط خوشقدم عن جواده أم الفلما عاين ذلك الأمير شاربك خرج منه الحدة وكان في يده طبس جناح، مكتوب على ظهره بالذهب هذا دليل لنهب الأرواح، فضرب به خوشقدم على قنطاريته فأبراها كما تبرى القلم فلما سقطت قنطاريته من يده جذب سيفه وقصد الأمير شار بك فضربه ضربة ثانية بالطير على خوذته فقطعها وجرح رأسه جرحا عظيما فلما رأى الدم على وجهه ولى هاربا دارد فلما رأوه أتباعه ولى هاربا والدم يقطر من لحيته ولوا وتبعوه منهزمين فتبعهم شار بك قدر ميل ورجع عنهم فما سلم منهم إلا القليل فلما وصلوا إلى أوطاق

السلطان سليم وشاع الخبر بأن خوشقدم منهزم، وولي مجروحا ووصل الخبر إلى السلطان سليم أغتاظ غيظا عظيما . فأمر بإحضار خاير بك فقال له: أني أريد الرجوع إلى دار سلطنتى، لأن الأعادي في حوالى مملكتى وقد قرب الشتاء وأشتد الغلاء وأترك هذا الخراب لأهله فلما سمع خاير بك ذلك عسر عليه هذا الأمر وقال: يا مولانا السلطان، أن فعلت هذا سقطت من أعين الملوك ويقولون هرب من الجراكسة، ولكن الصبر عاقبته الفرج،

ومن تأنى نال ما تمني فعند ذلك أم بإحضار من كان مع خوشقدم من الأروام وقال: لا تأتوني بجركسى أبدا ولا ترونى أحدا منهم وكل من يجيب أساري يجيبهم قدام الخيمة ويقوم المشاعلية يقطعون رؤوسهم، وكل من يجيب رأسا يؤديه إلى الوزير الأعظم فلما وقف كبيرهم بين يدي السلطان قال له: ما أجتمعت بطومان باى وفقال: لا والله ما أجتمعنا به وإنما وجدنا شار بك وهو سائر إلي جهتنا وقاصدنا فقال السلطان: في كم فارس يكون؟ قال: معه ألفا فارس من مدن عولابس وفي الحديد غاطس وهو أمامهم يقول في نفسه أنه يقدر أن يفتح بهم الأرض شرقا وغربا فقال له السلطان: أنت نظرت شار بك الأعور .

قال: نعم وقربت منه حتى نظرت في وجهه فقال له السلطان: صف لي صفته، فأنهم وصفوه عندي مرارا كثيرة فقال: ليس هو طويلا ولا قصيرا، وإنما هو شرطة الناس، وليس هو سمينا ولا رقيقا إلا أن قوائمه كتوائم البعير أعرض ما فيه صدره وأكتافه وذراعاه حنطى اللون عربى الوجه وليس هو أعور كما يقولون وكميا يسمونه بالأعور ولا به حول، وإنما إذا مال بعينه إلى حاجب يكون أحد بياضها أزيد من سوادها فلما سمع منه السلطان هذا الكلام قال له: صدقت ثم قال له: وهل طال الكلام بينكما حتى تمكنت أنت من النظر إليه ؟ فقال: نعم، حتى إني سألت من جماعة خوشقدم عنه فقالوا أننا رأيناه بأعيننا وهو يمسك الفحل الجاموس من قرنه ويجذ به فيقلعه من مكانه ويلوى قرونه بيديه في قلبه على جنيه والناس ينظرون إليه فقال له: صدقت إني سمعت عنه ذلك ولكن إذا نزل القضاء عمى البصر فلا تفيد الشجاعة فسوف ترى

أني سأقبض عليه وأقطع رأسه وأنت تنظر إليه فأن دولتهم قد أنعكس طالعها ثم أن السلطان ألقي كليته إلى الحرب وأمر أن تمسك جميع المراكب ويجعلوها صفا واحدا من بر مصر الى بر الجيزة وأن تربط في بعضها بأحكام وأتقان وأمر أن تعدى العساكر على المراكب ففعلوا كما أمر وأخذ معه نحو أربعين ألف خيال ومثلهم مشاة غير أتباعهم ولكنهم نقاوة النقاوة من شجعان عسكره وطلب قتال الأمير طومان باى وترك في مصر الوزير يونس باشا وبقية العساكر وأوصاهم بحفظ البلد.. وأخذ معه خاير بك نائب حلب وأوصى الوزير الذي هو يونس باشا أنه إذا جاءه الغزالى يرسله إليه فأمر الوزير من وقته وساعته

بكتابة مرسوم إلى قانيردى الغزالى يأمره بأن يعدي من الشرق إلى بر الصعيد وإن السلطان سليم يريد قتال السلطان طومان باى وهو مجد له في الطلب وانت اذا وصلت اليك تلك المكاتبة تكون على أهبة حتى تجتمع بالسلطان سليم وتكون أنت وهو على طومان باى حينما يكون وحيث ذهب

تعدية السلطان سليم إلى بر الجيزة

قال: فلما عدى السلطان سليم إلى بر الجيزة ومعه سيدي محمد أبن المرحوم السلطان الغورى وكان سيدى محمد قد قابل السلطان سليما في أول دخوله مصر على يد أخي جلبى وقاضى العسكر محمد أفندي بحكم وعهد كتبه إله السلطان سليم، وحلف له أيضا أنه لا يضره بوجه من الوجوه أبدا ولما قابله كرمه السلطان غاية الأكرام، وخلع عليه خلفة تليق بالملوك وزاد في أكرامه حتى أطمأن إليه وصار يأخذه معه في كل بلد ومحل يذهب إليه ولما عدي السلطان سليم إلى بر الجيزة كما تقدم، صار يسير بهم على الراحة لأجل ما معهم، من المدافع والضر بزانات والأحجار والأثقال قال الراوي: هذا ما كان من أمر السلطان سليم وسيره بالعساكر وأما ما كان من أم شار بك، فأنه سار بمن معه حتى وصل إلى بر الجيزة وعن يمينه الأمير قانصوه العادلى وند بيدى يحيى أبن الأمير أزبك والأمير دولتباى كاشف الجيزة والأمير باربك، وعن يساره الأمير أبرك رأس الجلبان والأمير تتم الزردكاش نائب الاسكندرية والأمير دولتباي الكبير كاشف الصعيد، والأمير قلج صديق الأمير شار بك، وهم سائرون - فقال الأمير تشار بك: والله يا أخواني أظن، والله أعلم أن في هذا اليوم تقع لنا مضايقة من قبل عدونا فأن قلبى قد جربته ما حدثني بشيء إلا وقد صادف الصحة ولكن قال العارفون من ثبت نبت والشجاعة صير ساعة فبينما هم في هذا الكلام إلا وقد ظهر على بعد جيش عظيم والسناجق والأعلام فقال لهم الأمير شار بك: رأيتم ما قلت لكم ؟ ولكن تأهبوا وقفوا مكانكم وأما السلطان سليم فأنه لما عايتهم عرفهم، فأنه قد جاء له بدوى من عرب الفيوم وأخبره بأن شار بك الأعور قادم عليك ومعه ألفان من خيار عسكر طومان باي كل واحد في نفسه يقول أنه يلقاك بمفرده فعند ذلك أسر السلطان سليم الرماة أن يبدءوا بالرمى ولما تقارب الجمعان حمل الأمير شار بك عليهم حملة واحدة وركس عليهم: فلما عاينوا ذلك رموا عليهم طلقا من البندق والمدافع والمكفيات والسبقيات حتى أودت الدنيا وتزلزلت تلك الصحاري، ولا بقى أحد ينظر أحدا، فهلك من هلك، وهرب من هرب، وثبت من ثبته الله، ولكن الأمراء الذين تقدم ذكر هم لم يهلك منهم أحد، ولم

يهرب منهم أحد، بل توكلوا المكنيات والسيقيات، التاني من آلات الحرب وقد أستعملهما الروم في حروبهم عدم المماليك وما كان للمماليك عهد بها من قبل ثم عمد إلى

ناحية من الجاووشية وقاتل قتالاً لا يدخل تحت الحصر حتى صارت الرجال مطروحة راقا فوق راق و أما باقي الأمراء من الجراكسة، فأن كل أمير منهم كسر من بين يديه من العساكر، ولكن ما ولت الروم كل الهرب وإنما تقهقرت مواكبهم وتنحت كتائبهم وعجزوا العجز العظيم، وذاقوا البلاء العميم لأنهم في طول عمرهم ما قاسوا قتالا مثل هذا اليوم وكان السلطان سليم يتأوه و يتحسر ويتقلق ويتضجر ويقول: ما كنت أظن أن أقاسي من أحد مثل ما قاسيت في يومي هذا ولا كنت أقول أني بهذه العشرة آلاف فارس أو ر اجل التي هي خيار قومى، ويتبعها أكثر من عشرين ألفا ألقي في هذا الأعور الذي هو في أقل من خمسمائة فارس ما لقيت منه، ويفني أكثر عسكرى فقال له خاير بك: والله يا مولانا السلطان كذلك أنا أقول ما كنت أظن أن شار بك بهذه الصفة، ولا كنا نعتبره بين الفرسان ولكن أبرز أنت بنفسك إلى العسكر وأزجرهم وأمرهم بالحملة لعل النصر يكون لك فعند ذلك خرج السلطان سليم على عساكره وصاح في وجوه أكابر هم: الحرب .. الحرب .. ما هذه الفترات ؟ أين تذهبون ؟ وإلى أي أرض تهر بون ؟ ثم أنه صار يوعدهم بالترقي و العطاء الجزيل، ويقول لهم: أنظروا لهم، فانه ما بقي منهم إلا الخمسمائة فارس أنزلوا عليهم بجمعكم، وأبطشوا عليهم بقوتكم ولا تبقوا هلك، وهو ينادي ويقول: أين أنتم يا سليم ؟ يا من يريد أن يكون سيد الملوك والسلاطين، أبرز إلى الميدان أن كنت سلطان، آه يا جبان يا أبن الجبان، يا من يقاتل المسلمين بالنيران . ثم ألتفت عن يساره فوجد كردوسا من الروم نحو الألفين وأكثر قد أحاطوا بالأمير دولتهاى كاشف الجيزة، فمال عليهم ميلة منكرة، فما شعر الروم إلا وهو حاطم عليهم حطمة الأسد الغضبان . فأنه لما راح السلطان الغورى بهؤلاء الأمراء والمساكر إلى مرج دابق كانت عسكره من جلجولية إلى لولجن، ولم يكن أحد يقول أن هذا العسكر ينكسر أبدا ولو أجتمع عليه أهل الدنيا، فأنه كان كل واحد من هؤلاء الأمراء يقول في نفسه، أنه مقوم بجيش وحده، ولكن لما أختلفت كلمتهم وقامت النفوس بعضها من بعض، ولاحوا على بعضهم كسروا بعضهم جبرا، وكسروا ملكهم قهرا فلما التحم الحرب مع السلطان

سليم لم يصبروا غير ساعة وهي من طلوع الشمس إلى وقت الغداة، وكانت الكسرة عليهم قال الراوي: وما زال الأمير شار بك كلما سمع الجاويشية يصبحون على الطوائف ويحرضونهم على الحرب فيعيدونها، فيحمل بنفسه عليهم حتفا، ويقول أن هؤلاء أحق بالقتل من غيرهم، فأنهم يأمرون الناس بقتل بعضهم

ويحرضونهم على ذلك، وهم لا يقاتلون شيئا، بل يكبرون العمائم، ويجهرون بالأصوات . ثم عمد لى ناحية من الجاووشية وقاتل قتالا لا يدخل تحت الحصر حتى صارت الرجال مطروحة راقا فوق راق و أما باقي الأمراء من الجراكسة، فإن كل أمير منهم كسر من بين يديه من العساكر، ولكن ماولت الروم كل الهرب وإنما تقهقرت مواكبهم وتنحت كتائبهم وعجزوا العجز العظيم، وذاقوا البلاء العميم لأنهم في طول عمرهم ما قاسوا قتالا مثل هذا اليوم وكان السلطان سليم يتأوه و يتحسر ويتقلق ويتضجر ويقول: ما كنت أظن أن أقاسي من أحد مثل ما قاسيت في يومي هذا ولا كنت أقول أني بهذه العشرة آلاف فارس أو ر اجل التي هي خيار قومى، ويتبعها أكثر من عشرين ألفا ألقي في هذا الأعور الذي هو في أقل من خمسمائة فارس ما لقيت منه ويفني أكثر عسكرى فقال له خاير بك: والله يا مولانا السلطان كذلك أنا أقول ما كنت أظن أن شار بك بهذه الصفة، ولا كنا نعتبره بين الفرسان، ولكن أبرز أنت بنفسك إلى العسكر وأزجرهم وأمرهم بالحملة لعل النصر يكون لك فعند ذلك خرج السلطان سليم على عساكره وصاح في وجوه أكابر هم: الحرب .. الحرب .. ما هذه الفترات ؟ أين تذهبون ؟ وإلى أي أرض تهر بون ؟ ثم أنه صار يوعدهم بالترقي و العطاء الجزيل، ويقول لهم: أنظروا لهم، فأنه ما بقي منهم ألا الخمسمائة فارس أنزلوا عليهم بجمعكم وأبطشوا عليهم بقوتكم ولا تبقوا منهم على أحد وأقطعوهم إلى أبد الأبد وأسرعوا في الحركات فلما تكلم السلطان سليم بهذه الكلمات المعجزات مع أكابر دولته، خرجوا من بين يديه وهم لا يدرون ما يصنعون وصاحوا على الطوائف المجتمعة وحمل كل صف من ناحية وكانت الجراكسة قد أيقنوا بالنصر والظفر، وما دروا أن في ذلك اليوم الموت الأحمر والبلاء المنتظر ولكن إذا تزل القضاء عمى البصير وما بقى مع الأمير شار بك إلا نحو خمسمائة فارس من الألفين الذين كانوا معه، وأما البقية فمنهم من قتل ومنهم من شرب، ولكن

لم يهرب منهم أحد من ضرب سيف ولا عود ولكن أنما هربوا من النار ومن البندق والضرايزانات وكذلك الذين قتلوا، لم يقتل أحد منهم بالسيف ألا القليل جدا وانما قتلوا بالبنادق والنار ولا كانوا هزموا اليوم ووقفوا حول الأمير شار بك وهو بينهم كالأسد وكل منهم يدعو له ومنهم من يقبل يديه ومنهم من يقبل رجليه لما رأوا منه من الشجاعة التي لا تسمع ألا عن عنترة بن شداد، فصار يسأل عن الأمراء ويتفقد همى واحدا بعد واحد،

فما وجد واحدا منهم قتل ولا جرح ففرح بذلك وإنما الذين قتلوا والذين هربوا كلهم مماليك وأتباع،

وأما الرؤوس الأعيان مثل الأمير قانصوه العادلى والأمير يحيى بن أزبك والأمير قانصوه كرت و الأمير أبرك رأس الجلبان والأمير دولتباى كاشف الجيزة والأمير دولتباى كاشف منفلوط، وكان صديقه قلج عن يساره ويتحدث معه حتى مر على الأمراء المذكورين جميعا، وهو يتفقدهم هل جرح منهم أحد فوجدهم كلهم طيبين فقال لهم: الشجاعة صبر ساعة، أنظروا ما صبرتم كيف ظفر تم، وأيدكم ربكم فثبتوا نفوسكم حتى يتم الأمر لكم، ومن تعب منكم يقف في مكانه ولا يولي ديره فيكسر قلب أصحابه، ويطمع الأعادي فينا، وكلما كنتم حزمة واحدة كنتم أنتم الغائبين فقالوا: والله يا أمير، ليس منا أحد يهرب لا من طعن ولا من ضرب، فأن هؤلاء القوم قد عرفناهم، ليسوا بأفرس منا ولا أشجع منا حتى نها بهم وأنما ضرورتنا من هذه النار، وهذا البندق والرصاص، ومن هذه الفرايزانات التي لو رموها على الجبال لأزالوها قال لهم: لا أعتبار بشيء من هذا مطلقا، والملحي ما له قاتل والأنسان إذا فرغ أجله مات وهو على فراشه وقد قال مولانا سبحانه وتعالى: و لكل أجل كتاب فلا يزيد العمر بالهرب ولا بالثبات ينقص العمر يومك يومك طيبوا نفوسكم ولا تجبنوا فأن الله تعالى يكره الجبان وأعلموا أنكم ما تقاتلون ألا عن حريمكم وأولادكم وأموالكم و بلادكم فمن قتل منكم مات شهيدا ومن عاش منكم عاش سعيدا وأما هؤلاء فأنهم باغون عليكم والباغي له وبينما هم في هذا الكلام وظنوا أن الروم قد بطلت همتهم عن الحرب وإذا بهم قد أقبلوا عليهم

زحفا مثل قطع الغمام، فصاح عليهم الأمير شار بك: الحملة، أسرعوا يا كرام غير لئام فكان هو أول من حمل بعد ما فرغ من الكلام، ونطح الجيش بصدره كأنه الليث الضرغام، فرمت عسكر الروم أول طلق والثاني والثالث بالبندق والضرابزانات حتى صارت البندق والأحجار نازلة كالمطر المدرار، والجراكسة قد التحموا في الروم حتى صار بينهم حملات ومحاربات ومصادسات و مهاجمات ومضايقات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت وصار لهم وقع بالسيف والدبابيس على الأبدان كوقع مطارق العداد على السندان أو كوقع حوافر الخيل على الحجر الصوان . وجرى بينهم من الحرب ما لا تسعه الأذهان وكان لهم يوم مشهود لم ير مثله في قديم الزمان

وكان الأمير شار بك قتاله في هذا اليوم قتال من أستقتل كالليث النضنفر آن مال على جماعة طحنها أو على طائفة مزقها وفي يده سيف يقطع به الأعمار قطعا ويصدع الأكباد صدعا، فلم يكن إلا شيء قليل حتى أنطفت جمرة الروم وخمدت و كلت حركاتهم وجمدت ورد جموعهم الأمير شار بك قهرا وزجرا بعد سيفه فتراجعت مواكب اليوم بين يديه إلى الهروب، وقالوا:

أن هذا البطل ما له من البشر مطيق ولا يليق لأحد أن يقاتل هذا السبع الغضنفر فلله دره من بطل الأبطال وهازم الأقبال، حتى صار بعض أكابر الروم يدعون له كما بيده شون لأنفسهم مما رأوا من شجاعته و فروسيته وعلموا أنهم لا يقاومونه لا في ركوب الخيل ولا في ضرب السيف ولا في رمي السهام وأنما عمدتهم على رمي البندق والضرابزانات وآلات النار فقال أكابرهم بعضهم لبعض أن القتال مع هؤلاء الأبطال في الفارغ البطال، فتقهقرت الروم إلى ورائهم فلا زالوا حتى وصلوا إلى النيل السعيد، وقصدوا أنفضاض

الحرب ..أفهم في هذه الحالة وإذا بغبار قد ثار حتى سد الأقطار فوقفت الروم تنظر الخبر، ووقف الأمير شار بك أيضا هو ومن معه من الجراكسة ينظرون وقد بقوا فئة قليلة، ولكن كل واحد منهم مقوم بألوف، ولولا النار التي مع الروم لكانوا أفنوهم عن آخر هم . فلما قرب الغبار ظهر من تحته خيل تركض الأرض ركضا فقال لهم الأمير

شاربك: لا يخلو هذا الجيش القادم من أن يكون السلطان طومان باي، وإلا فهم عرب غزالة قد جاءوا لنا لنصرة عدونا قال: فما تم الأمير شاربك كلامه حتى قربت الخيل إليهم وتحققوهم وإذا هم عرب غزالة يقدمهم سلام بن خبير وأخوه حماد، وهم قاصدون إلى العسكري الجر اكسة، فلما نظروا إلى الأمير شاربك بادروه بالسب والشتم فلما عاين ذلك منهم عرف أن الأمر صعب، فأقتضي رأيه أن يظهر لهم الهزيمة حتى يتبعوه، فإذا تبعوه وبعدوا عن الروم يرد عليهم، وربما أن الروم يرمون عليهم طلقا فيكون فيه هلاكهم . وكان الأمر كذلك فانه لما أظهر لهم الأمير شاربك الهزيمة طمعوا فيه وتبعوه فلما بعدرا عن اليوم رجع عليهم الأمير شار بك رجعة الأسد وقاتلهم قتال من يئس من الحياة فما ثبتوا بين يديه ولا درجة واحدة وقد ولوا منهزمين، فأنه ما بقى بقر به أحد إلا قتله فما ساعهم إلا الهروب وأما السلطان سليم فأنه لما رأى الحرب أنهزمت على الفور أمر الرماة أن ترمي، فقالت له الأعيان كيف تر مى على العرب وقد جاءوا لنصرتنا

قال: أرموا ودعوا كل من فرغ عمره يموت فرموا عليهم طلقا، فأصاب غاليهم فلما رأت العرب ما حل بهم من الروم أغتاظت قلوبهم وقال بعضهم البعض أنظروا إلى هؤلاء الملوج نحن نقاتل عنهم وهم يرمون علينا بالنار ولا يرحمونا ونادوا لبعضهم من يرد السلامة يتبع الأمير سلاما وأخاه حمادا فخرج سلام وتبعته العربان وما سلم منهم إلا طويل العمر فما مضى غير ساعة حتى أنعزلت عرب غزالة البعد ميل ووقفوا ينظرون ماذا يكون الأمر بين الفريقين فلما عاين الأمير شاربك ذلك حسب الحساب، أنه متى رجع إلى قتال الروم تتقناه العرب وتضايقه وتعوقه عن مراده، فأمر الأمير قانصوه گرت أن يكون في مائة فارس تحت السنجق بمن معه، فأينما وجد العرب حملوا يلقاهم بالمائة فارس، والعرب ألوف، وقد قتل منهم نحو ألف أو أكثر ثم حمل الأمير شاربك وإلى جانبه قانصوه العادلى والأمير أبرك والأمير قلج والأمير تنمر والأمير برد بك والأمير أبو يزيد والأمير دولتياى كاشف الجيزة، والأمير دولتياى كاشف الصعيد وسيدي يحيى أبن الأمير أزبك صاحب بركة الأزبكية، فهم صف واحد، كل واحد مقوم نفسه بجيش وحده، فلله درهم من فرسان أفراد، وأتباعهم نحو الثلاثمائة، تحطم على ألوف مؤلفة ورماة بالبندق و بالنار على سائر آلات الحرب . فلما رأت الروم الأمير شار بك قد رجع عليهم

يريد الحرب صاروا يتعجبون منه غاية العجب، وقالوا: لا شك أن هذا الرجل مجنون أو معه أحد من الجن يساعده وأنما العاقل لا يلقى نفسه في هذا الهلاك فأمرهم السلطان سليم بالرمي عليهم فرموا طلقا حتى صار البندق عليه كالمطر فلم يرجع عنهم، وصار في حملته حتى حطم عليهم وحط يده فيهم فما صرت تنظى إلا رؤوسا طائرة وفرسانا تتساقط و عملوا في بعضهم كما تعمل النار في الحملب وكان النهار قد ولى، وغربت الشمس وألح لما عظيما السلطان سليم في الحرب، وأمر أجناده أن يضايقو هم وكان يرجو أخذهم في ذلك الوقت لأن غالب عسكر الأمير شار بك، منهم من قتل ومنهم من هرب، وما بقي معه إلا الأمراء الرؤوس القراصنة و بعض مماليكه فطمعت فيهم الروم غاية الطمع و بذلوا جهدهم في الحرب، فلله هؤلاء الفرسان القلائل، كيف أصطلوا هذه العرب بأنفسهم، فلما عاين السلطان سليم الأمر بخلاف ما أمله ودخل الليل أيس من أخذهم ونادي في عسكره بالأنفصال . فما كانت غير ساعة حتى رجع عسكر الروم تحت سنجقهم وصار الأمير شاربك يشتمهم ويقول لهم بلسان تركى: أذهبوا إلى شوربتكم يا علوج الروم،

يا كفرة يا فجرة وعسكري الروم تشتمه وتقول له: أن شاء الله تعالى يا معرص نقطع رأس طومان باي ورأسك،

ونخليهم تحت أرجلنا مثل رأس الكلب و أمرأتك وأمرأة غيرك يا نصرأنى يا أبن النصرأنى يا كيشة حرامية يا عرصات، يا ملاعين، يا خنازير، أي شيء لكم نسبة بالسلطنة أو الأمارة يا كفرة، يا مماليك، لو كان على رأسكم دولة كنتم تعملون سياسا عند سلطاننا لأن سلطاننا خير السلاطين وسلطان الخواقين ونحن غزاة الإسلام وعززنا الله على الأعراب والإعجام، كلنا مجاهدون مع

الكفار والفجار، وما نحن مثلكم أشرار أولاد كفار، لعنة الله عليكم وعلى من أتبعكم إلى يوم القيامة فرجع الأمير شاربك لينظر معلا ينزل فيه هو وجماعته فقال له الأمير يحيى أبن الأمير أزبك صاحب بركة الأزبكية: أنزلوا على شاطىء النيل تجاه عدونا فقال الأمير شاربك: هو رأى صواب غير أن عندي رأي أصوب منه وهو أن بالقرب منا بركة

ماء على الطريق فر بما أن السلطان طومان باى يرسل لنا أحدا أو يأتي هو بنفسه فلا ينظر إلينا، ولا يعرف في أي جهة نزلنا فأستصوبوا رأيه فما لبثوا غير ساعة إلا وقد أقبل عليهم خمس فوارس من عند السلطان طومان باي، فأجتمعوا بالأمير شاربك، وأخبروه أن السلطان نازل على دهشور وهو مشغول الفكرة عليكم، وما جاءه عنكم خبر إلا عند الغروب، فهم أن يأتي إليكم، فرأى النهار قد ولى، وبلفه أيشا أن عرب غزالة قد حار بوكم مساعدة العدوكم، فساءه ذلك وأنقبض خاطره، وبقي متحيرا في نفسه فقال الأمير شاربك: ليته قد جاءنا في ذلك الوقت والله لو جاءنا وقت الحرب وأسعفنا بالطعن لهم والضرب لأخذناهم عن آخرهم فأن اليوم ليس لهم عزم ولا قوة إلا رمى النار، ولما بطل رمى النار ولم يبق إلا السيف والعود ما عاد لهم قدرة على ذلك، ولو أن السلطان طومان باي صح منه الرآي كان جاءنا على الفور، ولكن الله أعلم أن دولتنا قد ولت وأنقضت، فأني أنظر أن الرأي والصواب ننساه ولا نعرفه حتى يفوت وقته وأوانه، والرأي الخطأ نتبعه فهذا دليل على الزوال ولا شك، لكن لا دافع له فيما قضى والله تعالى يعلم أننا لم نقاتل في حظ أنفسنا وأنما قتالنا عن أنفسنا وحريمنا، وعن ديارنا وأموالنا وأولادنا،

فأنه قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: « فمن أعتدى عليكم فأعتدوا عليه بمثل ما أعتدى عليكم » والله تعالى يعلم أنهم باغون علينا وقد قال الله تعالى: « ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بقي عليه، لينصرنه الله » وقد أسلمنا أمرنا الله تعالى، وهو يفعل في ملكه ما يريد ويحكم في خلقه ما يشاء ثم قال له القاصد أن السلطان أمرني أن ساعة وصولى إليك لا تتأخر ساعة واحدة وتحصله على ضيعة وردان فأنه ينتظركم هناك . فعند ذلك أمر الأمير شار بك بالرحيل ليلا وترك الحرب وأختار الهروب وقال: من كان منا يتبعنا وقام من ساعته وأمر بالرحيل خوفا من سطوة سيف السلطان سليم فلما بلغ مناه وخجل عن دعواه قال له بعض الأمراء:- فأن تبعنا العدو في هذا الليل كيف نصنع ؟ فقال لهم: وهل سمعتم أن الروم تقاتل ليلا أبدا وما رأيتم لما أن دخل الليل كيف بيتوا، أين عقلكم ؟ فلما ساروا ومروا على الروم من بعيد لم يخرج إليهم

أحد وقال السلطان سليم، لا أحد يتبعهم منا، فأنهم ربما فعلوا ذلك مكيدة لكم وحيلة عليكم فرح السلطان سليم بمرورهم لجهة البحر المالح فلا زال الأمير شاربك سائرا طول الليل إلى أن طلع النهار وهم في الوراق وإذا بالسلطان طومان باى نازل هناك فلما رأوه على بعد، أمر السلطان جميع من معه من العسكر أن يذهبوا إلى ملاقاة الأمير شار بك فارس الرمان أفلاقته العسكر أحسن ملتقى، ودعوا له وفرحوا بسلامته فلما قرب من السلطان أراد أن ينزل عن فرسه، فأقسم عليه السلطان طومان باي ألا يترجل أحد منهم عن مسكو به فأمتثلوا قواه، وسلموا عليه وهم على ظهور الخيل وسار السلطان طومان باي والأمير شاربك عن يمينه والأمير قيت الرحبي عن يساره، ومن ورائه الأمير أبرك رأس الجلبان والأمير قانصوه كرت فلما وصل السلطان إلى أوطاقه ترجل عن جواده وترجل الأمير شاربك وبقية الأمراء والأجناد، وجلس السلطان على الأرض من غير كرسى، وكذلك الأمير شاربك وبقية الأمراء على قدر مراتبهم فقال السلطان للأمير شاربك: أخبرنا يا أمير بما وقع لك من الروم و بما فعلت في محار بتهم فقال الأمير شاربك والله يا مولانا السلطان وقع لنا معهم حرب يشيب الأطفال في المهد ويلين لعظمته الحجر الجلمود، وكنا نحن الظافرين عليهم والغالبين لهم، وقد كسرناهم حتى رميناهم البحر، ولكن ما سلمنا من عرب غزالة، فانهم هم الذين عاقونا عن مطلبنا وصدونا عن مقصدنا، وصدونا عن غرضنا،

وإني والله العظيم رب زمزم والحطيم لو ثبت معى الألفان اللذان خرجت بهم من عندك ما كنت رجعت عنهم وكنت قسمتهم قسمين: قسم يقاتل الروم، وقسم يقاتل غزالة . وما كنا بتنا إلا في مصرنا، ولكن ما شتتهم إلا هذه النار . التي يرمون بها فما يشعر الإنسان إلا وهو مضروب بها وما يعرف من أي جانب جاءته، فان غالب عسكر نا لم يقتل منهم أحد بالسيف إلا القليل ولكن هذا ما جرت به المقادير من الرب القدير، ونسأله اللطف والتدبير ممن له الحكم وإليه المصير ثم قال الأمير شار بك: والله يا مولانا السلطان، لو حزمت أمرك وضبطت رأيك لكنت لما سرت أنا والألف فارس وقاتلت العدو وصبرت أنت، وسرت وجئت بشيء يسير من خلفي وقاطعت على العدو من ورائهم لكنا أخذناهم بواسطة من قبل أن تأتيهم بقية العساكر وعربان غزالة وما كنا بتنا إلا

في مصرنا، وكان الفصل الأمر بيننا وبينهم، وأرتاحت قلوبنا من هذا العناء، فأن السلطان سليم كان معه نحو عشرة آلاف وكانوا نقاوة عسكره، وأتباعهم نحو العشرين ألفا، ولكن ما كنت أنظر هم في الميدان إلا كالبهائم ليس

فيهم من يسوق حصانه في حومة الميدان إلا أن يكون جركسيا منا من الذين خانوا أبناء جنسهم، وذهبوا إليه، فالله يخون الخائن والله أعلم أن دولتنا دعائمه ندمالت وأيامها قد زالت وأني أرى أن الرأي الصواب ننساه ولا نذكره حتى يفوت ويمضي حكمه، وأن الرأي غير الصواب تتبعه ولو تعلق بالسحاب، وهذا مما يدل على الأضطراب والأنقلاب فنعوذ بالله من العكس في الأسباب التي توجب إلى الذهاب من غير أسباب، ومن عظم مصيبة تتحير فيها عقول ذوي الألباب و فقال له السلطان طومان باي: دع عنك الأفكار والغم بما فات وأشتمل الرأي فيما هو آت فقال الأمير قيت الرحبى: صدق السلطان فيما قال اضربوا لكم رأيا فيما تفعلون، فأن العربان صارت كلها أعداء لنا، وعونا لعدونا، وليس فيهم من يقاتل معنا ويكافح عنا، لأنه ما منهم أحد، إلا من قتلنا أما أباه، واما أخاه، وأما أبنه، وأما أبن عمه، وأما واحدا من أقاربه وذلك لما كانوا يعصون علينا فهم الآن كل واحد منهم إيطالينا بثأره القديم، وأما عدونا فأنه قد جاءهم جديدا وليس بينه و بينهم شيء من العداوة، ولا نالهم منه إلا الخير فأنه تذهب إليه أكابي هم فيعطيهم ويرضيهم ويعلق آمالهم بجزيل المطامع، ويحلف لهم أنه لا يؤذيهم ولا يقتل متهم أحدا، ولا يأخذ منهم خراجا،

وإنما يأخذ منهم العشر ويحكم بينهم بالعدل،

ولا سيما معه هذان الشيطانان الخبيثان خاير، بك والغزالى، وهما يراسلان شيوخ العربان، ويقولان إليهم، هذا ملك عادل، مسلم أبن مسلم، وسلطان أبن سلطان، إلى سابع جد، ويحب الخير والأنصاف و يكره الظلم والأسراف، ويميلان قلوب الناس إليه، ويعطفونهم عليه، ويسميانه بالملك العادل ويشكرانه لكل أحد عاقل وجاهل وبعد هذا فما بقى لكم من الرأي ألا أن ترسلوا قاصدا القبيلة غزالة التي هي أشد القبائل علينا، وتوعدوهم بكل خير، فلعل أن يميلوا إلينا و يطيعونا، فأن حصل ذلك كان أخيراً، وأن

أبوا فالأستعانة بالله خير لنا من كل أحد، وغاية الأمر الموت، فأنه أمر لابد منه وعند ذلك أمر السلطان طومان باى يكتابه إلى عربه الغزالة، فأول ما بدا فيه بشيخهم حماد بن جبير، ويخوفهم من الله تعالى وعاقبة المكر والبغي، وحلف لهم أن أطاعوه ودخلوا في طاعته ليقابلتهم بأحسن مقابلة، وأن لم يقبلوا ذلك يكفوا عن قتالنا ولا يعارضوثنا في قتال عدونا فأنهم كانوا يجتمعون على بعد من الحرب ويرسلون من ينظر لهم الخير، فلما تقع الكسرة على الروم يرمحون رمحة واحدة على الجراكسة من خلف ظهرهم، فيضيقون علينا من شدة هزيمة عدونا فلما ترى الجراكسة الأمر قد جاءهم من خلفهم يرجعون

عليهم، ليكفوهم عن أنفسهم، ويردون عليهم، فتصير الجراكسة في الوسط، فبهذه الوسيلة تغلب الجراكسة غاية الغلية فلما وصل كتاب السلطان طومان باي إلى حماد بن خبير وعرف مضمونه وأعطاه لأخيه سلام فقرأه الآخر وعرف مضمونه قال سلام لمحمد شيخ البكارية أنت يا محمد ما تعرف ما جرى بيننا وبين الجراكسة وما قتلوا منا وكم يعطوننا الأمان، ثم يغدرونا فقال له محمد: إنما كان يفعل ذلك السلطان النورى وأما هذا الرجل طومان باي فأنه رجل صالح وفارس فالح وما سمعنا عنه لأحد سوءا أبدا، وأنا ضامن لك عهدته فأنه رجل صادق في قوله، وليس هو كالغورى فقال له سلام وأخوه: حتى ننظر، أن كانت العرب تطيعنا أولاً. ثم نادي في جميع عرب غزالة أن يجتمع الأعيان منهم فأجتمعوا كلهم، فقرأ عليهم كتاب السلطان طومان باى فلما سمعوا قاموا كلهم قومة واحدة، وقالوا: لا سمع له ولا طاعة، ولا بيننا وبينه إلا السيف فقال محمد شيخ اليكارية: يا وجوه العرب، أما ما قلتم عن السلطان الفوري فأنه كله صحيح، وقد نظرتم كيف أخذه الله تعالى،

وأما هذا الرجل طومان باي فهل سمعتم عنه شيئا من الظلم والبغي قديما أو حديثا ؟ فقالوا: لا، ما سمعنا عنه سوءا أبدا لا في زمن النوري، ولا في هذا الآن وأنما هذه الطائفة دولتهم قد زالت وولت، وأوقاتهم مالت وأيامها ولت، وأعناؤها ذلت لو قمنا معه ونصرناه لا يفيده ذلك بعد أن ذلت دولته، وأن تركنا نصرة السلطان سليم وأعتزلنا لا

نسلم من عتبه علينا فيما بعد ذلك ولا تأمن على أنفسنا منه فأنه صاحب البأس الشديد، والأولى أن نجعل لنا عنده يداً نأمن بها على أنفسنا فيما بعد، وبعد ذلك لا تطل في الكلام وأقتصر في الجواب، فما بقى لك معنا كلام، والسلام أم فلما أيس منهم أنثني راجيا إلى السلطان طومان باي وأخبره، بذلك فقال لهم الأمير شاريك: الآن قد بان لكم صحة قولى فقالت جميع الأمراء، والله أن رأيك في جميع الأمور هو الصواب من يوم الريدانية وأنت تقول لا تدفنوا المدافع في الرمل، وقاتبردى الغزالى يقول، الصواب دفنها حتى لا ينظرها أحد، وإنما كان ذلك منه مكرا وعنادا فلا لقاء الله خيرا فأمنت جميع الأمراء على دعائه عليه، وكان كذلك فلم يلق نصرا إلى أن قتل أسوأ القتالات وسياتى خير قتله فيما بعد أن شاء الله تعالى فقال لهم السلطان طومان باي: يا أمرام، يا أغوات الرأي عندي أن تتوكل على الله ربنا، سبحانه وتعالى فان الأمر بيده وما يضرنا إذا متنا شهداء، فأن الله تعالى يعلم أنهم قد بغوا علينا، وقد قال تبارك وتعالى: فمن أعتدى عليكم فأعتدوا عليه بمثل ما أعتدى عليكم، وأتقوا الله

وأعلموا أن الله مع المتقين».. فما بقى لنا إلا التسليم الله في الأمور كلها، وتقاتل إلى أن نقتل، والسلام . وأما حريمنا وذريتنا فالذي خلقهم هو أرحم بهم منا ثم قال: يا قوم، نحن أقمنا هاهنا يومنا، وقد ثقل على أهل هذه القرية من جهة الأكل والعليق، والرأي أن نرحل إلى قرية أم دينار ثم أمر السلطان بالرحيل، وقام من وقته وساعته فقامت جميع الأمراء الذين بقوا معه من الأعيان، وعلى رأسهم شاربك والأمير قانصوه العادلى والأمير قانصوه كرتى والأمير تنمر نائب الاسكندرية، والأمير دولتياى والأمير أبرك رأس الجلبان وباقي الأمراء الذين تقدم ذكرهم فما كانت غير ساعة حتى وصلوا إلى أم دينار وتلقاهم أهلها أحسن ملتقى وباتوا تلك الليلة فلما أصبح الصباح قدم عليهم خيال من أهل تلك البلاد وهو يصيح بهم الخيل قد أخذتكم فما أستتم كلامه حتى أظلم البر من شدة الغبار وكثرة الخيل فلما لاح لهم ذلك الغبار ركبوا وخرجوا إلى العرب أو القتال، فألتقوا من غير ترتيب اليمين والشمال .

وألتقى الجمعان، فوقع بينهم من الحرب ما يعجز عنه الوصف، فلله در الأمير

شاربك وقانصوه العادلى، وما فعلوا هذا اليوم مع هذه الجموع !. وأما الأمير قيت الرحبي، فأنه تصادم مع قانبردى الغزالى في حومة الميدان فاقتلا قتالا شديدا حتى تحيرت النظار فيما وقع بينهما من الحرب، ثم تقارب بعضهما من بعض حتى تقابضا بالأطراف، فلم يقدر قانبردى الغزالى أن يتمتع أقيت الرحبى من سرجه مع أنه رجل كبير السن في عشرة التسعين، وقد قعد في الحيس محبوسا سنين ومع ذلك لم يتغير له لون فعلم الغزالي من نفسه الخسة ودخل عليه الجبن وقال في نفسه، إذا كان هذا فعل هذا الشيخ الهرم، فكيف لو وقعت مع شار بك . ثم أنه شجع نفسه، وأطلق الأمير قيت الرحبي، تم بعد عنه وأستعدل عليه بقنطاريته من وراء ظهره، فقلبه عن جواده وأراد أن ينزل ويقطع رأسه، وإذا بفارس صرخ عليه صرخة أفلجته، وطعته في خاصرته طعنة قلبته عن جواده، وأنثنى ذلك الفارس راجعا إلى الحرب والقتال، فالتهى الغزالى بنفسه عن الأمير قيت الرحبي فبادر الأمير قيت الرحبي إلى حصانه فركبه، ودكس خلف ذلك الفارس الذي كشف عنه فإذا به الأمير شار بك فدعا له من صميم قلبه وأراد أن يكون معه في القالب ومازال يشق الصفوف ويفرق الألوف حتى عجز وكل وبطل جواده وكلت سواعده فلما علم من جواده العجز إلتفت وأنثني راجعا حتى خرج من المعركة فوجد خيلا أقبلت من كبد البر، لا يحيط بها الحصر وإذا بهم عرب غزالة كان رسم لهم السلطان سليم أنهم يجتمعون مع العسكر هناك ويقاتلون الجراكسة فصادفوه على هذه الصفة وقد بطل حصانه، فرشقوه بالحراب، فمنع عنه اللبس فصادفه منهم سهم دخل في فؤاده، فوقع على وجه التراب فنزلت عليه النهاية فعروه وأخذوا ما كان عليه، وقتلوه هذا ما كان من أمر الأمير قيت الرحبي وأما الغزالي، فإن مماليكه سارعوا إليه لما رماه شار بك وحملوه إلى وراء حتى أدخلوه في الوطاق، وأسقوه السكر ووجدوا جرحه سليم وأما الأمير شار بك، فلازال يقاتل قتال الجبابرة والفراعنة حتى كل من تحته الجواد، وتضاعف عليه المراكسة وزاد وطلعت عليهم المر بان التي في تلك البلاد وصاحت عليهم المدافع والبنادق وملأت الفؤاد وفي كل رمى كانت تتزلزل تلك البلاد فحضرت صفوف الروم كالبحر الزاخر، وبقيت الأحجار والرصاص نازلة كالأمطار، وصارت المدافع صانحة والحديد مع الأجساد والرءوس طائرة قال الراوي: كان مع السلطان

سليم ثمانمائة مدفع خلى منهم مائتين في الشام،

وجاء معه بمصر ستمائة منهم مائة وخمسون مدافعاً كبيراً،

والبقية ضر بزانات كان طول كل واحدة منها خمسة وعشرين شبراً، وكان يسحب كل واحد من الصفار أربعة روؤس خيل وأما الكبار فكان كل واحد يسحبه ثلاثون أو أربعون من الخيل وكان كل واحد منها مكسيا بجوخ أحمر ولما دخل مصر كان أول المدافع في الريدانية وأخرهم في الخانقاه وكان عسكره كالنمل في الوادي، وكان على مينه خيالة راكيون، كل واحد في يده مزراق، وفيهم بيارق حمر نحو عشرين أو خمسة وعشرين ألفا ومثل ذلك على شماله كلهم خيالة بيارق صفر، وقدامهم من اليكنجرية نحو عشرين صفا، كل صف لا يعد وقدامه صفوف بالإعلام والطبل خانات والوزراء والباشوات وكل من جابوه من الجراكسة يقطعونه قدامه، وان كان رجلاً كبيرا أو أميرا تبعوه مكتوفا إلى السلطان سليم ويقطعون رأسه قدامه، وهو واقف فوق الحصان، وقدامه مكشوف والسعاة قدامه بطاسات من ذهب نحو أربعمائة وفرقة في رءوسهم الريش الأبيض مشاة وفي أيديهم سهام يسمونها صولاً فكلهم كانوا يقفون قدامه مر بوطي الأيدي، وهم ينظرون إلى الأرض بأدب .وفي رواية سبعة أعلام بأسماء أجداده مكتوب عليها أسماؤهم بالذهب، وأربعة وعشرون علما بأسم السلطان سليم وكان مكتوب في بعضها إنا فتحنا لك فتحا مبينا وفي بعضها، نصر من الله وفتح قريب، وكان معه علم أبيض أكبر من سائرها سالت عنه فقالوا، علم الأسلام ونرجع إلى سياق الحديث، وهم، أي الجراكسة في ذلك الحرب الشديد والقتل المزيد اذلاح لهم غبار حتى سد الأقطار فتنحى كل فريق عن الآخر حتى يروا ما تحت ذلك

الغبار فما مكثوا غير ساعة حتى وصل أول الخيل وهم يتصايحون، نحن فرسان غزالة، ذوو الكفاع والكفالة اليوم ترون يابني جركس الموت الأحمر، وتذوقون من سيوفنا الوبال الأكبر، ويفتى جمعكم وتفرغ كثرتكم ويقطع أصلكم وفرعكم وكان المتكلم بهذا الكلام أميرهم وكبيرهم سلام بن خبير وأخاه حمادا وهما كبراء القوم فقصد سلام بن خبير الأمير قانصوه كرت، فوقع بينهما آتناب من العرب تحير الناظرين، وحمل كل

واحد منهما على صاحبه، و أظهر فنونه وعجائبه . وحملت فرسان غزالة على الجر اكسة حملة واحدة وحملت الروم من الجانب الآخر،

وأخذوهم بواسطة فلا تسال عما قاسوا من الحرب والطعن والضرب في ذلك فضايق سلام بن خبير الأمير قانصوه كرت حتى رماه البحر،

وما بقي معه سوى عشرين نفراً من مماليكه، والذين مع سلام نحو الألف أو أكثر ولما وقع الأمير قانصوه كرت في البحر ثقل على الفرس من لبس الحديد، وقد كان الفرس قد كل من الجري فلم يقدر أن يعدي إلى ذلك البر ففرق هو وفرسه و غالب مماليكه، وذهب تحت الماء، وما سلم منهم إلا القليل فكان رحمه الله حسن السيرة والأخلاق، وكان إذا رآه الإنسان يقول تبارك الخلاق وأما سلام بن خبير، فأنه رجع على الجراكسة رجعة منكرة وهو ينادي، بالأخذ الثار فوجد شار بك على ما هو عليه من الحرب الشديد فلله دره من فارس الأعداء فارس في مائتي فارس يقاتل الوفا فوقعت الجراكسة في كفة النقصان . أمام فبينما هم كذلك وفي هذه الحالة وإذا بعجاج قد أرتفع الغبار و ثار من ناحية أرض وردان، وهم يصيحون بالنصرة لآل عثمان اليوم يا بنى جركس نذيقكم الهوان ويحل بكم النقصان فنظروا إليهم وإذا هم قانبردى الغزالى ومن معه قد جاءوهم من جهة أخرى، فبقيت الجراكسة لا يعرفون من يقاتلون وإلى أين يذهبون أول ما قال صاحب الحديث: أن القوم لما وصلوا ضربوا لهم ميدانا، ثم أن الأمير قانبردى الغزالى المارق من أبناء جنسه برز الى حرمة الميدان، ونادى بأعلى صوته، يا أل چركس نظر تم قوتكم وشوكتكم ونظرتم ما تكون دولة آل عثمان ودولتكم، أين شجعانكم، أين فرسانكم، أين سلطانكم ؟ عرفتم مقدار كم وندامتكم، وأنا أحد عبيد الحضرة السلطان سليم الملك العظيم، صاحب القوة والجيش الكاسر، منتشر العساكر، ناصر القياصرة، كأسر الأكاسرة، قاتل الفراعنة والجبابرة، أما معكم أحد من الشجعان يبرز إلى الميدان فقال السلطان طومان باى للخاصكى الذي بين يديه أبرز إليه قبر ز من وتته، ولما صار في الميدان قال له ذلك الفارس والذي هو قانبردى الغزالي و يا خاصكى أن روحك ضيقت عليك حتى جئت بها

إلى الهلاك، أستغنم السلامة، وأرجع إلى آهلك فقال له الخاصكى وأنت من أين يا آنجس العرب حتى تهتني بهذا الخطاب فأن قانبردى الغزالى لما جاء في هذه المرة لبس لبس العرب وتكلم بكلامهم، وتلثم حتى لا يعرف، فما ظنه الخاصكى إلا بدويا من غرب غزالة

ثم إن الخاصكى قام في «سرجه وطعن طعنة بالمزراق فخرج من يده كالبرق الخاطف، فلما نظرها قانبر دين الغزالى جاءت قاصدة صدره، أنعرف لها في ظهر الجواد وخطفها من الهواء، ثم صاح على الخاصكى: خذ حريتك فأنك مقتول بها، ثم هزها وطعنه بها . فغطس عنها الخاصكى فصبر عليه حتى استوى على برجه وعاجله بها قبل أن ينظمها، فوقعت في نحره، فوقع على الأرض طريحا ثم أن قانبردى الغزالي جاء في الميدان وطلب البراز كل ذلك ولم يعرفه الجراكسة وما يظنونه إلا بدوياً من الفرسان المجنورة، فأنهم لو عرفوه لرموا بأنفسهم عليه جميعا، وقطعوه بسيوفهم، فأنه أول من خانهم، وأغري عليهم أعداءهم هو وخاير بك، فأنه لولا هذان الأثنان ما كان السلطان سليم يتجول ويدخل أرض مصر مع أنه كان إلا يتنزل عليه بعد أخذه أرض مصر أنه يعمل باشا من جانبه أحدا من الجراكسة، ولا يعطي لأحد ذلك من أمراء الجراكسة لتقدم أطاعته، فأنه كان له عزم و يأس و عظمة و تكبر وتجبر و كان قهاراً سفاكا للدماء، ما كان يرحم في محل السياسة ولا يشفق على كبير ولا على صغير و كانت ممثه إذا عاش أن يأخذ الربع المسكون من أيدي الملوك المتنوعة، ويصير هو سلطاناً على جميعهم وكان سبب مجيئه إلى مصر كشة العناد كان حصل من الأمراء، وقتل الأولاقية، وعدم طاعته على السكة والخطبة بأسمه، وكان محركه خاير بك، ولكن لكل شيء آفة من أفان تيمورلنك لما خرج على الملك الناصر فرج بن برقوق أخرب حلب والشام، وأطلق فيهما النار بعد أن نهب جميع ما فيهما ولا قدر أن يتجول ويدخل مصر . وفي الحقيقة أن السلطان سليم زاد على تيمورلنك بهذه المدافع والبنادق والضريزانات التي إذا سيبوا منها للقا تزلزل الدنيا وترعب القلوب، ولكن إذ أراد الله بأم هي أسبابه و نرجع إلى سياق الحديث، فلازال قانبردى الغزالي تبستر إليه الفرسان، واحدا بعد واحد حتى قتل منهم عشرة فهابته الفرسان وقالوا قد تعجبنا من هذا الإنسان، فما عرفنا هل

هو من الأنس أم من الجنة فقال لهم قانبردى: يا آل جركس أريحوا أنفسكم وأبرزوا إلى سلطانكم طومان باي، أما أن يقتلني وأما أن فلما سمع السلطان كلامه تعجب منه، وقال: ألا تنظرون إلى قوة هذا الفارس وأقدامه وشجاعته وكثرة كلامه، فهل فيكم من آحد يكفيني شره ؟!

فقال قلج: أنا يا مولانا السلطان فقال: أبرز إليه وخذ حذرك فإني أراه سريع الحركات،

ولا يخلو أن يكون بطلا من الأبطال المجنورة ولولا أن فرسى قد بطل لبرزت إليه، ولا أظن أن فيكم أحدا يقاس به في فروسيته فقال له قلج: أنا أكفيك شره بعناية الله تعالى ثم برز إليه قلج، وكان من الأمراء الأربعينات، وقد كان تعين له أن يصير أمير مائة مقدم ألف موضع الأمير كرتباى الوالي، ولو كان الأمير شاربك حاضرا في ذلك الوقت ما تركه يبسرز إلى هذا الفارس فأنه كان من شدة محبته له يفديه بنفسه في كل أمر صعب وفي الحقيقة أن الجراكسة لو عرفوا أن هذا الفارس هو قانبرى الغزالي ما برز إليه إلا السلطان طومان باى بنفسه أو الأمير شاربك، فأنهما يرجحان عليه في الفروسية ثم نزل إليه الأمير قلج، وحمل عليه فوقع بينهم من الحرب أنداب حتى تعجب الناس من هذين الفارسين ثم أن الأمير قلج ضرب قانبردى ضربة على رأسه بالسيف قطعت الخوذة، ونزلت إلى الرفادة والساتير فجر حته جرحا خفيفا فضرب قانبردى الغزالى ضربة على يمين الأمير قلج فأبراها كما تبرى القلم فوقعت إلى الأرض هي والسيف فأنبهت الأمير قلج وأندهى وتخيل فهجم عليه قانبردى وضربه ضربة أطاحت رأسه عن جسده فلما عاينت الجراكسة ذلات عسر عليهم قتل الأمير قلع وقالوا ما يقايس هذا البطل إلا الأمير شار بك أو السلطان طومان باي ثم أن هذا الفارس جال في هذا الميدان يميناً وشمالاً وصار يعجب بنفسه ويتمايل على ظهر فرسه، وصار يشتم الجراكسة بالعربي، ويقول لهم: يا لئام غير كرام، من يقاوم السلطان سليم أو يقاوى سلطانه أو يثبت بين يديه يا كفار، يا فجار: وأفحش في كلامه حتى أفحم قلوبهم وكل ذلك ولم يعرفوا أنه قانبردى الغزالي وقال لهم: إذا كان سلطانكم يزعم أنه فارس أو يقاوم الفرسان فليبرز إلى حومة الميدان

و ينظر بنفسه أن كان يرجح أو يقع في كفة الخسران فقال لة السلطان طومان باي: هأنت جئت إلينا هات ما عندك من فروسيتك وشجاعتك ولا تبق ممكنا، فإن السلطان طومان باى قد تفرس في القتال وصار القتال سجيته وصنعته، فما بقي يتكلف لشيء ثم أن السلطان طومان باي قال له:-أنظر ياأخا العرب لا أقاتلك ولا أجار بك حتى أتكلم معك كلاما لعل أن يكون فيه صلاح فقال له: قل ما عندك لى فقال له السلطان طومان باي: أريد منك أن تخبرنى من أنت أولا، وما الذي حملك على قتل فرسانى من غير أذية سبقت، منى إليك، فأني والله ما أدركت نفسي ولا أعلم أني بنيت على أحد ولا ظلمت أحدا،

ولا أفتريت على أحد، وما أمر سلطنتي هذه، والله ثم والله لم يكن في غرضى ولا خاطرى، وإنما الأمير علان والأمير كرتباى الوالي والأمير

شار بك أبرموا على وقالوا، لا نرضى لهذا الأمس إلا أنت فعلمت أنه أمر ابتلاني الله به وأما هذا السلطان سليم الذي تدعي أنه ملك عادل وأنه لا يحب الجور، كيف يجوز له أن يتعدى علينا، أو يز مى علينا بالنار والمدافع، ويقتل رجالنا ويسبى نساعونا و أولادنا ونحن مسلمون مؤمنون موحدون قائمون بحماية الدين فلما أن بغى علينا و تعدى حده وجب علينا أن نقاتل عن أنفسنا و أولادنا وحر بيمنا وأموالنا، وفي ذلك أذن من الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، وهو أصدق القائلين: (فمن أعتدى عليكم فأعتدوا عليه بمثل ما أعتدى عليكم ..» الآية (٨٠) و نحن في الزمن الأول قدرنا عليهم مرارا وعفونا عنهم وهم الآن قدروا فما عفوا، وملكوا فما رجعوا، وفعلوا فينا ما لم يفعلوه في عبدة الأصنام والصلبان، وهم جيرانهم و محاذون لهم، وأما نحن فأنا مسلمون موحدون فأنى سألتك بالله تعالى، و بمحمد رسوله صلى الله عليه وسلم أن تكون معنا ونكون نحن وأنت أخوانا من الآن، أو تتركنا لا لنا ولا علينا، و نحن تستعين بالله عليهم، وتكفينا شرك وان اخترت الحرب والقتال فأني قاتلك إلا أن عرفتني بنفسك فأنك قد قلت لا تريد إلا آنا فهأنا قد جئتك بنفسي، وأكشف لثامك فأنى متحير فيك وأشكل على أمرك فلا أنت بدوى تعرف ولا جر كسى تعرف، وكلامك لا يشابه كلام

الروم ولا كلام العرب، وأني أقسم عليك بالله الذي خلقني وخلقك إلا ما أخبرتني من أنت فكشف له اللثام فإذا هو قانبردى الغزالى فلما رآه السلطان طومان باى غاب عن صوابه من شدة القهر وقال له: « يا أبن ألف قرنان و نسل أولاد الزنا، يا خبيث يا ملمون يا أبن الملعون، يا خائن يا أبن الخائن، ولهذا تبعث الخوان، فأن الذي ذهبت إليه وصرت من حز به شهرته الخيانة فأن أسمه سليم خان، لا كان وأنت أيضا قد عاهدتنا وخنتنا وعاكستنا، و أغريت علينا أعداءنا، فبالله العجب، كيف طابت نفسك الخبيثة بذلك ؟ ولكن صدق الله العظيم (الخبيثات للخبيثين» (٨٢)ـفقال له: إني سألتك بالله تعالى، وتوسلت إليك برسول الله صلى الله عليه وسلم و بسر شيخك سيدي أبي السعود الجارحي أن تجعلنى عتيقك في هذا اليوم: فلما سمع السلطان طومان باى ذلك القسم رق قلبه له، و ذلك مزق كمال إيمانه

فقال له: على شرط أنك تكفينا شر هذا العدو الذي جئت به إلينا، وبشرط أنك لا تسحب في وجه أحد من ألجركس سيفا فحلف له الغزالى على ذلك، وقد شدد عليه في الإيمان فعند ذلك رفع السلطان القنطارية عن صدره، وقال له: قم يا خبيث .فقال الغزالي وهو ينفض التراب عن رأسه وجاء إلى أرجل السلطان وقبلها في الركاب ودعا له وهو يكاد أن يبكي ندما على ما فعل وسار إلى فرسه وركبها وقال لجماعته: أرجعوا عن القتال، فقد حلفت له إني لا أقاتله، وإنى وافله بالإيمان ولكن أخاف إذا رجعت إليه يقتلني وإنى راجع من هنا إلى محل آخر أقيم الحرب فيه، و أغير الملبوس الذي رآنى لابسه وأما طومان باى، فأني لم أر ى إلا أن دولته قد زالت لأنه لو قتلني لأكتفى شري، ولكنه قدر على وعفا عني، إلى أن وصلت السكين إلى العظم ثم أنه قصد نحو سنجق السلطان سليم، وفي هذه الساعة وصلت العساكر التي خلاها السلطان سليم مع الوزير يونس باشا في مصر لما عدى إلى بر الجيزة القتال الأمير شار بك وطومان باى يهدهيم و به أعلم وكان السبب في قدر مهم إرسال مكاتيبه إلى يونس باشا في الليلة الماضية، يأمره يعدي إلى برانيابه بجميع فن معه من العساكر ولما وصلت هذه العساكر في تلك الساعة إلى السلطان سليم أشتد ظهره وقويت نفسه من خانة وأما السلطان طومان باى فأنه لما عفا عن الغزالي ورجع إلى سنجقة، لم ير تحته إلا جماعة قلائل من

مماليكه، وبقية الأمساء تشتتوا في الحرب والطعن والضرب ولكن الكثرة غلبت الشجاعة، فلله در هم من فئة قليلة تقاتل هذه الجموع والعساكر التي لم يعلم لها أول من آخر فأندهشت عقولهم وتحيروا في أمر هم فقال لهم الأمير شاربك والأمير قانصوه العادلى يا آل جركس اثبتوا فأن القتال ليس بكثرة العدد والمده وإنما هو بزيادة الصبر والجلد وأقرووا قوله تعالى: «وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، والله مع وهأنا أمامكم وفريد عصره السلطان طومان باي - نصره الله تعالى - يرد عنكم، فدونكم والحرب ما دمنا في قيد الحياة، فلا تخافوا من أحد، ولا يغرنكم كثرتهم، فأنى و عزة الله تعالى لولا هذه النار التي معهم لقاتلتهم بنفسي، ولا أكترثت منهم أبدا، فأنى ما رأيت فيهم فارسا أعجبنى كره وفره، ليس لهم بأس إلا بهذه المدافع والبندقيات، وذلك لا يفيد منهم شيئا، لأن كل إنسان جعل الله له عمرا لا يزيد بهروبه ولا بثباته ينقص، وقال العارفون، الشجاعة صبر ساعة وإذا هم بغبار قد ثار من جهة الميمنة فنظروا إليه وإذا بصياح آخر وغبار قد ظهر من جهة الميسرة

ثم بصياح و غبار قد ظهر من خلف أظهر هم فتحيرت الجراكسة في أنفسهم، إلى أين يذهبون وسبب ذلك أن قانبردى الغزالى لما رجع منهزما من السلطان طومان باي إلى السلطان سليم و أخبره بأنه صدمهم وقتل منهم عشرة فوازس، ولكن شار بك ولومانباى و قانصوه العادلى حجبونى شن مرادى، فأخترت الرجوع إليك بشيء أريد أن أفعله، ففي ساعته نشيل الجرأكسة: فقال له السلطان سليم: وما هو يا أبا منصور قال: تأمر أياس باشا أغا اليكنجر ية يذهب من جهة يأتي من جهة بمرن معه من العساكر، وأنت بمن معك من جهة أخرى و نطبق عليهم فأنهم فئة قليلة ما يثبتون معنا ولا ساعة واحدة فقال السلطان سليم: نعم إلى أي ثم أمر بما أشار به قانبردى الغزالى فما مضى غير ساعة حتى تفرقوا كما تقدم، ثم أحاطوا بالجراكسة من كل جهة وجاءت عرب غزالة من جهة أخرى و السلطان طومان باي، والأمير شاربك، والأمير قانصوه، والأمير يحيى بن أزبك، والأمير أبرك رأس الجلبان، والأمير دولتباى، والأمير رزمك الناشف أنظر ما فعل هؤلاء الفرسان القليلة في هذه الألوف المؤلفة والجموع التي لا تحصى من الكثرة من كل جنس فصارت هذه الأمراء المذكورون متحدين الركاب في الركاب لا يفارق

بعضهم بعضا، وبقية العساكر لا يدرون أين يذهبون ولا من يقاتلون وما قتل من الجراكسة أحده بالسيف والعود، وإثما كان القتل فيهم بالبندق وأما الأمراء المذكورون فلم يخرج منهم أحد من وفي هذا اليوم قتل من الجراكسة أكثر من كل يوم بهذه العملة التي عملها قاتبرد الغزالي، وغالب القتل ما كان إلا بالبندق و الضر بزانات وآلات النيران على سائر الصنوف وتم النهار، و نادى منادي الحرب بالأنفصال، وأفترقوا على هذا الحال، وقد تخلت الجراكسة عن بعضها ورجعوا وهم لا يعرفون بعضهم بعضا من شدة ما حصل لهم من هول ذلك اليوم وليس الخبر كالعيان قال الراوي: ونزل السلطان طومان باى على قرية أوردان ونزل السلطان سليم على قرية أسفل منها على شاطىء النيل السعيد، بحيث أن كل عسكر منهم ينظر الآخر رأي العين، وباتوا تلك الليلة في أسوأ الأحوال من شدة ما حصل لهم من القتال ثم جلسوا بعد ما أكلوا الطعام جاء لهم من تلك القرية التي باتوا بها، وأخذوا في ضرب الرأي فقال لهم السلطان طومان باي والله يا أخواني ما أظن إلا أن دولتنا قد زالت، فأنني أرى أننا كلما فعلنا شيئا تريد أن تكون فيه المصلحة فما يكون أمرنا فيه الأبضد ما تريد

وأرى أن أعداءنا أمرهم يزيد فكم قتلنا منهم من ألوف ومع ذلك أرى الأمر كلما له يزيد وأن الغالب على ظنى زوال ملكنا، وأن الظفر لمدونا، وأنظروا قول القائل أن أقبل السعد سم قائما وأقتبس من الملح أن شئت نارا وأن رقد السعد فارقد له فما اللج في العكس إلا خسارا ثم أن السلطان طومان باي قال لهم: يا فوم، أن هذه الواقعة أضرت بنا وهدمت قوتنا يفقد الأمير قانصوه كرت، فأنه كان ركنا، ولا بقى لنا رأي إلا أن تذهب إلى حسن بن مرعي وأبن عمه صقر، شيوخ شرب محارب، فأني قد وليتهم عليهم، وأطلقت حسن بن مرعي من الحبس بعد أن كان المرحوم السلطان الغورى كتب

على قيده «مخلد»، وقد أطلقته لما أن صار الأمر لي، وأخذت عليه العهود والمواثيق والأيمان المغلظة أن يكون معي ظاهرة و بالنا، ويقوم معي بالقلب و القالب إذا أحتاج الأمر لذلك، وما ترى أحسن من سيرتا إليه ونكون نحن وهو على قلب رجل واحد، ثم بعد ذلك ندبر أمرنا وننظر ما يكون من جانب الله تعالى، وهو يعلم أنهم باغون علينا ثم

أنه أمر بالرحيل من وقته، وكان ذلك الوقت نصف الليل فقال له بعضهم: فأن قام العدو علينا في هذا الليل فكيف يكون الأمر ؟فقال له السلطان: هل رأيت أو سمعت أن الروم تقاتل ليلا فهذا الأمر لا يكون، وأنما أعتماد هؤلاء القوم على النار، والرماة مشاة لا يقدرون على المشي بالليل فما كانت إلا ساعة حتى ركبوا وساروا من وقتهم وهم مستيقظون لأنفسهم حتى وصلوا إلى مدينة سخا وكان حسن مرعى وأبن عمه شكر قاطنين بها وعر بهم منتشرين بها إلى سنهور فنظروا إلى خيل طومان باى وقد أقبلت، فبادروا إلى خيلهم، فركبت الفرسان وسادات القبيلة، وركب الأمير حسن بن مرعي أمير العرب والحاكم على تلك البلاد حتى قارب عسكر السلطان، فترجل عن جواده هو و أولاد عمه وعشيرته ثم قدم عليه السلطان، وقدم هو على السلطان، فقبل يديه وطلب من السلطان أن ينزل إلى منزله للضيافة فقال له السلطان: ما نحن فاضون للضيافة ولا لغيرها والعدو في أثرنا وقامت علينا العربان من عرب غزالة لا لقاهم الله خيرا، خصوصا سلام بن خبير، لا سلمه الله تعالى، وما جئت لك إلا لتنظر لنا محلا تحتمى فيه، ثم ندين آمرنا فيما فيه الصلاح لنا فقال له الأمير حسن: إذا كان الأمر كذلك، أنا أعرف لكم محلا، يقال له الغاية، وهو واد كبير واسع، وافر المياه إذا تحصن فيه القوم

ووقف على بابه رجل واحد منع من يدخل ولو كانوا ألوفا من الناس، فإن هذا الوادي لا يمكن أن يدخله غير فارس ولا يمكن أن يدخل منه أثنان متساويان لأنه ضيق جدا ومن الجانبين أرض ربوسيخة كل مع زل بقدمه وداس عليها ماخت به وهذا الوادي هو قلعتنا إذا قصدنا أحد من أعدائنا، وعلمنا أنه لا قدرة لنا عليه نذهب إلى هذا الوادي فنأمن على أنفسنا منه، فما لكم أيها السلطان أعدل منه ولا أحسن منه فقال له السلطان: أركب وسر بنا على بركة الله إليه لعل الله أن يحفظنا به ونتحصن وما يكون إلا ما يريده إفساروا من وقتهم حتى وصلوا إلى فم الوادى الذي يدخل منه إليه فلما رآه السلطان وقف وغطس قلبه، وأنقبض خاطره و أحس بقلبه أنه لا يحصل له من هذا الوادي خير أبدا فحبس فرسه ووقف مكانه، وتحير في أمره، وألتفت إلى أمراء دولته وقال لهم: إني مخبركم بمنام رأيته من مدة يومين رأيت نفسي آني في هذا الوادي بعينه، وأنا على جانب البحر المالح، وقد قامت فرتينة عظيمة، وأظلمت الدنيا ولا بقى أحد مع

أحد وإذا بخمسة كلاب سود قد أحاطت بي، وأرادت أن تفتر ستى فجذبت سيفي و أردت أن أضر بهم به وإذا به قد طار من بدى، وسقطت عمامتى، ودقت الكلاب على وقبضوئى، فصرت بينهم كقطعة لحم، كل واحد ينتشنى من ناحية فأيست من نفسي، فأنتبهت مرعوبا، وقد عمني العرق فلما سمع منه الأمراء هذا المنام تشوشت خواطر هم، وقال بعضهم:-أن هذه الرؤيا لا تدل على خير، وأن هذا مما يدل على أن الظفر لمدونا، والنصرة له علينا، فأن وقوع العمامة يدل على زوال المنصب، وأما قيام البحر فأنه قيام هذا السلطان علينا، وأما عدم السيف فأنه يدل على عدم القوة، وأما الكلاب فانهم رءوس الأعداء يقبضون عليك، ولا حول ولا قوة

إلا بالله العلى العظيم، فأن صحت هذه الرؤيا فقد والله زالت دولتنا وأنقضت مدتنا فقال لهم السلطان: ما بقى لنا حيلة نحتال بها ولا منية تستعين بها، قد قاتلنا حتى تلفت نفوسنا وتثلمت سيوفنا، وقد قامت الدنيا كلها علينا، فما عسى أن نصنع وأما أنا فقد أردت أن أسلم نفسي، فأن كان قد بقى في عمري بقية فأنهم يعطوني الأمان، وأن كان قد فرغ فأن كنت على فراشي فأني أموت وأما أنتم يا أغوات فقد حاللتكم، فليذهب كل واحد منكم في ناحية إلى حيث شاء وأراد فلما طال الوقوف قال الأمير حسن بن مرعي: يا مولانا، أني أخاف عليكم، ربما أن يكون العدو قريبا منكم، فيعسر عليكم الدخول من مضيق في الوادي،

فأدخلوا بنا على بركة الله تعالى، ثم بعد ذلك أجلسوا و أستر حوا ودبروا آمركم كيف تختارون قال الناقل فدخل السلطان طومان باى من باب الوادي و دخل وراءه الأمراء والأجناد .فقالت الأمراء، نحن معك لا نفارقك حتى تذهب أرواحنا: فلا زال بهم حسن بن مرعي حتى أوصلهم إلى صدر الوادي فضربوا للسلطان خيمة على تل عال على جانب البحر المالح، ونزلت بقية الأمراء في خيمتهم، فما هدأت نفوسهم حتى جاءوا للسلطان لضرب الرأى إلى وأما حسن بن مرعي، فأنه أخذ أذنا من السلطان ليرجع إلى بلاده، ويأخذ لهم الأخبار، و يرسل لهم يعلمهم بما يقع بالتفصيل فأذن له السلطان في ذلك، ودعا له .ثم قال السلطان لأمرائه: هذا الوادي خير لنا من قلعتنا التي كنا بها ما لم يخنا حسن

بن مرعى:-فقالت الأمراء كلهم على لسان واحد: الله يخون الخائن ثم رجع حمدوق ودخل منزله، فسألته أمه عن السلطان طومان باي فقال لها: قد أدخلته في غاية الوادي، و هانا قد فقالت له أمه: فما تحب أن تصنع ؟ أخبرنى بما في ضميرك فقال لها: أن هؤلاء القوم دولتهم قد ولت، وأمورهم قد حالت، ولا سيما وعدوهم قد ملك البلاد وحكم العباد وولي وعزل من أراد، وهؤلاء ما عاد لهم من الأمر إلى ظهور خيلهم وقد تحيرت في أمري، فأن قاتلت عنهم فلا قدرة لي على ذلك، وأن قاتلت معهم أوقعت نفسي في المهالك فقالت له أمه، وكانت من الصالحات: يا ولدي الأيمان والعهود التي قد حلفتها أنت وأبن عمك له ما تقول فقال لها: ولهذا أنا متحير في نفسي، كيف أصنع فهو في هذا الكلام مع والدته وإذا بفرسان القبيلة قد جاءوا مسرعين، وقد علت أصواتهم، وهم ينادون، أركب يا أمير حسن، فأننا ننظر عسكر جرارا وخيلاملات الأقطار أفركب حسن بن مرعى وسار في أول الخيل حتى أجتمع بأوائل العسكر القادمين، وإذا بهم عسكر السلطان سليم قد جاءوا في طلب السلطان طومان باى والسبب في ذلك أن السلطان طومان باي لما ركب في الليل كما تقدم ولم يتبعه أحد، وطلع النهار، جلس السلطان سليم وحوله أكابر دولته، وجاء الأمير خاير بك، ولم يأت الأمير قانبردى الغزالي فسأل عنه السلطان سليم فقيل انه ركب نصف الليل ومعه خمسة أنفار من مماليكه وتبع السلطان طومان باي، فهو إلى الآن لم يأت وإلا فخاف عليه السلطان سليم، وقال لخاير بك:- أنظر إلي قلة عقل صاحبك، كيف يخاطر بنفسه فأنهم أن فطنوا به لا ينجو منهم أبدا، وأنه أن قتل تعطل أمرنا وخشي السلطان أن يطول عليه الأمر وحسب حساب الأعدادي التي حول مملكته

قال: فما الرأي عندكى وقالوا: الرأي ما يراه الختكار وأطرق رأسه مفكرا فيما يصنع وإذا بقانى دى الغزالى قد أقبل فلما حضر بين يدي السلطان سليم قال له:- أين كنت يا قنبردى ؟ قال: يا مولانا السلطان، إني لما رحل طومان باى نصف الليل أحببت أن أنظر إلى أين يذهب، فركبت، وتبعتهم على بعد خشية أن يدروا بي فرأيتهم قد سافروا إلى ناحية البحيرة أو الغربية فلما سمع السلطان سليم ذلك الكلام قال له: فما الرأي عندك ؟ أي السديد الموفق، أو الملك العظيم - محمد السعيد سليمان هرجع سهل قال:

الرأي عندي أن تعطيني ما أريد من العسكر، ويكون صحبتي الأمير خاير بك وأرح نفسك، فأني أرجو ألا أرجع إلا به أو برأسه فقال له السلطان: المسكر بين يديك، خذ ما شئت فأختار أن يكون أياس أغا أغاة اليكنجرية بأربعة آلاف معه، وخاير بك بأربعة آلاف خيال فأمر السلطان بذلك ففي الوقت بوزت هذه العساكر، وأمر على العساكر فرهاد باشا، يكون سردارا عليهم، والأمير خاير بك والغزالى يكونان تحت يده، ويتقيدون برأيه . فساروا في أثر السلطان طومان باي، وهم يسألون من أهل البلاد، حتى نزلوا على قبيلة محارب، وخرج لهم حسن أبن مرعي كما تقدم: فلما أجتمع بهم قالوا له:- انا سائرون في طلب السلطان طومان باي، هل سمعت عنه خبرا؟ إلى أين يذهب ؟ به فقال لهم: الذي يدلكم عليه ويسلمه لكم من غير حرب ولا قتال، ماذا يكون له عندكم ؟ فقالوا له: أن أردت شارطناك على مهما تريد، وأن جعلت الأمر لنا ولسلطاننا ولمروءتنا فيكون الذي يحصل لك أكثر مما تؤمل أنت وفقال لهم: على تسليمه لكم، وأجعل الأمر بمروءتكم نضمن له الوزير فرهاد باشا أن يقدمه عند السلطان على جميع مشايخ العرب، وأن يقطع أرضه أقطاعا إلى أن يموت، لا يؤخذ منه الدرهم الواحد أن ثم أن الوزير فرهاد باشا خلع عليه قفطانا مذهبا من الخلع السلطانية، وخلع أيضا على أبن عمه شكر، ووعدهم بكل خير ثم خرج حسن بن مرعى - وأبن عمه وهما فرجانان حتى دخل على والدته فقالت له: ما هذه الخلعة، ومن أين جاءتك ؟فأخبرها بما وقع له، وأنه إلتزم لهم أن يسلمهم السلطان طومان باي فقالت له: أنت ما فعله معك السلطان طومان باي وقد أطلقك من الحيس، وأمنك بعد الخوف، وحلفت له الأيمان بأنك ما تخونه، فكان جزاؤه منك أن تسلمه العدوه، وتظن أنك إذا فعلت تلقي خيرا بعده، والله لئن فعلت ذلك لأغضين عليك غضبة تكون سببا لهلاكك فقال لها: فما الذي أفعله وقد رهنت لسانى معهم بأني أسلمه لهم،

وإذا لم أفعل ذلك ما سلمت من شرهم، وربما يبلشون بى فلا ينفعني لا أنت ولا هو فقالت له: أن الرأي الصواب أن ترسل فارسا للسلطان طومان باي وتخبره بما وقع، وأنه يكون على أهبة، أن شاء حار بهم وأن شاء هرب إلى جهة أخرى، وأما أنت فأرجع إليهم فشاغلهم إلى أن يطيب الطعام، فبينما يأكلون يكون طومان باى قد عدى بلادا بعيدة،

أو يكون قد تهيأ للحرب فتخلص أنت من الجهتين فوافقها على ذلك، وخرج من عندها، وهو متردد كيف يصنع، ويقول لنفسه، أين عقلك ؟ تقتدي بكلام النساء الناقصات العقل والدين، وتترك ما يحصل لك من السلطان سليم من العز والجاه والفخر بين العربان بسبب من غدرت به الأيام والليالى، وفاتت دولته، وأنقضت مدته، وإذا لم أمسكه أنا مسكه غيرى وفاز بالفخر والعز، فليس هذا من الصواب في شيء ثم أنه أجتمع بأبن عمه شكر، و أخبره بما قالت له أمه فقال له شكر: وهل عاقل يبيع عاجله بأجله، ولا تمل إلى الكفة الناقصة فيحصل لك الخسران فأتفقوا على أن يكونوا مع السلطان سليم وأما السلطان طومان باي فقال لأمرائه: إني أريد أن أخبركم بما رأيت في هذه الليلة، رأيت أن قائلا يقول لي رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئك السلام، ويقول لك، أن دولتكم قد زالت، وعمر كم قد فرغ، وأنت جارنا في الجنة بعد أربعة أيام، أرجع عن القتال، فلا فائدة لك فيه، وأنا قد عزمت على رمي سيفي في هذا البحر المالح وقال لهم، كل واحد منكم يذهب إلى حيث أراد وهذا آخر إجتماعنا في الدنيا، والقيامة تجمعنا في الأخرة قال الناقل: فبينما هم في هذا الكلام إلا وقد رأوا الخيل قد أقبلت عليهم من بعيد فقامت الأساء كلهم على ساق، وركب الأمير شاريك وبقية الأمراء وأتباعهم وحطوا على عدوهم بقلوب كالحديد، لكن العدو كثير، وهم طائفة قليلة، لكنهم فرسان عارفون بركوب الخيل، و أولئك كثير غير عارفين بذلك، لكن أعتمادهم الأقوى على الرماية بالبندق و الضريزانات فلما رآهم الغزالي حطوا عليهم قال للعسكر فسحوا لهم طريقا حيث أن طومان باي ليس هو معهم فصار من عسكر الروم الذي يقرب على الجراكسة يقطعونه بالسيوف إلى أن وصلوا إلى آخر الجراكسة، وهرب بعضهم من مضيق الغابة إلى خارج وأما قانصوه العادلى، فأنه ذهب إلى أصهاره من عرب قطارة، وكان معهم نحو ألفي فارس راكبة مع القبائل التي جاءوت لنصرة السلطان طومان باي فلما رأوه ترك الحرب وفعل بنفسه هذه الفعال، تر كره وأخذوا صهرهم ورجعوا،

وصعبهم سيدي يحيى أبن الأمير أزبك وطلعوا من مضيق الغابة قبل وصول العسكر مع الذين هربوا وأما شار بت الأعور فنه خرج قبل وصول العسكر، وتبعه أثنان من

مماليكه، وكان بينه و بين الأمير أحمد بن بقر شيخ العرب صحبة أكيدة، بحيث أن الأمير أحمد هذا إذا كانت مصلحة في مصر ما كان ينزل إلا عند الأمير شار بك، فيقوم به الأمير شاربك خير قيام، ويكرمه غاية الأكرام، وليس الخبر كالعيان، وكان يقضي له جميع مصالحه من جانب السلطنة، و يقوم يناصره على أعدائه، حتى أن الناس كانت تقول، لولا الأمير شاربك مع الأمير أحمد بن بقر ما كان له حال، وكانوا يتعجبون من محبته له وأكرامه وقيامه بشأنه، ويحسدونه على ذلك غاية الحسد، حتى آن الأمير شار بك كان يقول له: يا أمير أحمد، طول ما رأسي تعيش لا تحمل هما أبدا، ولا تحسب حساب أحد ولا السلطان الكبير، فأن الأمير شار يك كان يحسب حساب أقرانه لئلا يسعوا في هلاكه، فأنه كان فريد عصره في الفروسية وركوب الخيل، وكان إذا ركب ونزل في الميدان عند لعب الجريد مع الأمراء، تحير النظار ولم يقدر أحد يقبل عليه وكان من شدة محيته إذا حصل له مضايقة من السلطان أو من أحد من الأمراء الأعيان يذهب إلى صديقه أحمد بن(بقار) و يدبر أمره ولما كان من أمر السلطان طومان باي ما كان من تركه القتال، وتسليم نفسه للعدو، وخرج الأمير شاربك من الغاية، قال في نفسه، ما لي بد من أن أسير الى صاحبي الأمير أحمد بن بقر (بهار)، وأنزل عنده حتى أدبر نفسي فيما أفعل، أما أني أسافر إلى بلاد العجم وأكون مع سلطانهم أو أسافر إلى بلاد اليمرق، ولله التدبير فيما يريد والشاعر يقول:- تحذر من صديقك كل يوم وبالأسرار لا تركن إليه سلمت من العدو فما دهانى سوى من كان معتمدى عليه فما زال سائرا من بلد، والدنيا قائمة على ساق، والعربان هاجت، وصار كل مفعول جائزا، وكل من كان له عدو قصده فأن ظفر به قتله، والناس مرتابون في بعضهم في أشد ما يكون، حتى وصل إلى النيل السعيد، وعدى منه إلى الشرقية، ثم سار إلى أن وصل إلى الأمير أحمد بن بقر (بقار) آخر النهار وحده في منية غمر أفرحب به وأنزله في بيته، وأكرمه غاية الأكرام، ثم حكى للأمير أحمد بما وقع لهم مع عدوهم من الأول إلى الآخر فكلهم تعجبوا من السلطان طومان باي لأنه أخطأ في هذه الفعلة التي فعلها، وتسليم نفسه لأعدائه، يستحكمون فيه كيف شاؤا، وكيف يرى الهوان بعد العز، وكان يقاتل إلى أن يقتل ولا يسلم نفسه، فأنهم لا يبقون عليه أبدا،

وتبقى الأهانة والذل والشماتة من الأعداء أقبح وأتعس .فقال الأمير شاربك: قد تم الأمر، وذهبت دولتنا، وما بقى كلام إلا التدبير في المسير من هذه البلاد وقصد أن يرسل بحريمه وولده، ويخرج ليقصيد بالأدا غير هذه البلاد فقال له الأمير أحمد بن بقر (بقار): يا أمير، قال العارفون، من تأنى نال ما يتمنى، أصبر حتى ننظر ما يتم الأمر عليه فقال له الأمير شاربك: أين عقلك ؟ حيث أن السلطان طومان باى سلم نفسه لعدوه، هل بقى لك بعد ذلك شيء ؟ في غد تأتيك الأخبار بأنه صلب على باب زويلة، أو علقت دراسه عليها هذا ما جرى للأمير شاربك . وأما السلطان طومان باي فأنه بقى وحيدا فريدا، وقد رمي بجميع عدهته وسلاحه وملبوسه في البحر المالح حتى الصفح الفولاذ الذي ليس له نظير في الدنيا، والقنطارية المفردة، حتى الطير الجناح الذي لم يسمح الزمان بمثله فأنه كان صاعقة من الصواعق، لا يضرب به على حديد إلا قطعه، ولا على حجر إلا فلقه، فكان من تحف الملوك القدماء فعند ذلك حطمت (حطت) عليه العساكر، يتقدمهم إياس أغا أغاة اليكنجرية، وخاير بك والغزالي وحسن بن مرغى، فأقتفى رأيهم أن يقبضوا عليه حيا، ويأتوا به السلطان سليم يشعل به ما يحب ويختار ثم أمروا جميع العسكر أن يعمدوا سيوفهم، فأنه قدومى سلاحه ولا بقى معه أحد يقاتل عنه ففعل الجراكسة كما أمروا، وعسكر السلطان سليم كلت ثم حلقوا عليه من كل جانب، وصار بينهم كالسبع فعند ذلك نزل أياس والغزالي وخاير بك وجاءوا إليه .فقال له أياس أغا: الأمر أمر الله تعالى، فقم يا مولانا السلطان، أجمل يده اليمنى فوق اليسرى، ولا تؤاخذنا في ذلك يا مولانا وربطوهما من قدام وأوثقوهما، فأن الأعيان لا يكتفون إلا من قدام ثم قدموا له بغلة وأركبوه عليها، وقيدوه من تحت بطنها، وأحاطت به اليكنجرية وبقية العسكر، وجدوا في السير، كأنهم وقعوا بفريسة عظيمة أو لقية، ولو أمكنهم أن يطيروا به لطاروا فأخذ يتكلم مع اليكنجرية، فسألهم عن حالهم وعن قدر جوامكهم:- فقالوا له: لكل واحد منا ستة عثامنة إلى عشرة عثامنة فقال لهم: أنتم جئتم من بلادكم إلى هنا لأجل ذلك ..؟؟ فقالوا:- فقال لهم: بارك الله فيكم، و بهذا قد غلبنا سلطانكم الطاعتكم له على هذا القدر اليسير، والله أن جامكية أحدكم لا تكفي أن تكون جامكية سايس من سياسنا، فو الله ثم والله لو تكونوا عسكرى لجعلت لكل

واحد منكم دينارا في كل يوم فقال بعضهم لبعض: ما الرأي ؟ تطلق هذا الرجل، ونكون أعوانا له ونأخذ دينارا في كل يوم،

ونصير عنده في أعز ما يكون . . ؟ فمنهم من أستصوب ذلك الكلام ومال إليه ومنهم من قال، لا يغرنكم هذا الكلام، فأنه ما قال لكم ذلك ألا لما رأى نفسه وقع في أيديكم وهل يكون هذا قط أن يصير لكل واحد منا دينار في كل يوم ؟ فوقع فيهم الهرج ومازالوا سائرين به حتى وصلوا إلى أوطاق السلطان سليم، وكانوا قد أرسلوا أولاقا وقت قبضهم عليه يبشر السلطان بأنهم مسكوه مسكا باليد، وأعلموه كيف كان قبضهم عليه، وآن شيخ العرب حسن بن مرعي هو الذي كان سببا في ذلك، لأنه ما دلهم على موضعه إلا جسن هذا وأنه حسن له عبارة دخوله في هذا الوادي، وحبسه فيه، وأنه يستحق كل خير، فأنه لولا حسن هذا ما عرفنا له موضعا الأوشاق أو الأوجاق أحد خدم السلطان ممن يركبون الخيل وذكروا للسلطان جميع ما وقع، وأنهم قادمون به بالقيد والبند، بعد أن كان قد رمي سلاحه في البحر المالح، و سلم نفسه بالأمان وقد تشتت جميع عساكره، ومسكنام باليد، وهو واقف على جبل عال بمفرده . ما راء به ففرح السلطان بذلك غاية الفرح، وقال:- الأن ملكنا ملك مصر .فما تم الكلام إلا وقد أقبلت العساكر ولهم فقام أوطاق السلطان على ساق، حتى أن السلطان أرتاب من ذلك . وظن أن العدو قد هجم على أوطاقه فقالوا له: البشارة، هذا إياس أغا و خابير بك والغزالي قد جاءوا بغريمك فلما وصلوا إلى خيمة السلطان سليم، خرج لهم الوزير الأعظم يونس باشا، وأمرهم أن ينزلوا السلطان طومان باى وأخبروه بالواقعة من أولها إلى آخرها، و أنه لولا الشيخ حسن بن مرعي هذا ما كنا عرفنا له طريقا فشكره السلطان على ذلك، ووعده بكل خير فلما أصبح الله تعالى بالصباح، أمر السلطان أن يعمل الديوان، وأظهر ما عنده من الزينة الملوكية، ورتبوا له أحسن ترتيب، وحضر جميع الحساكر ووقفوا بين يديه اليكنجر به صفوفا على أحسن ترتيب، وكذلك المدافع في ناحية العسكر صفونا، وجهزوا النار، وهم ينتظرون أمر السلطان أن يطلقوا عليهم وعلى البنادق نارا و تندق الكامات و الطبلانات التي للسلطان والتي للوزراء والباشات والأمراء ثم أمر بأحضار السلطان طومان باي والأمير حسن بن مرعي فلما حضر السلطان طومان باي أدخلوه

من بين هذه العساكر، ورأى نظام العثمانية في أحسن ما يكون، و نظر هذه العساكر وهذا الترتيب الذي لا عين رأت ولا أذن تشفعت ولما دخلوا به على السلطان سليم خان سلم عليه بسلام الملوك:-فرد عليه السلطان سليم كما يجب، ولم ينقص مقامه في سلامه ثم وقف طومان باي، فأمره بالجلوس،

فجلس وهو في غاية الندم، وقال:- إنى كنت طيرا طائرا، وكانت الأرض واسعة أذهب الى حيث أريد وأختار، فسلمت روحي لعدوى بيدى بس ما كانت فعلة فعلتها أوجبت إلى الهم والذلة ! كل ذلك خطر في نفسه، وهو جالس لا يتكلم ولا أحد يتكلم، ولا يرفع صوته ولا رأسه فنغلره السلطان سليم، وتأمله بعين الفراسة . فوجد فيه كل شيء يشهد له بالشجاعة والفروسية وكمال العقل شاهد له لا عليه فتعجب السلطان سليم فيه، كيف سلم نفسه بغير حرب ولا قتال ولم يكن له شيء فيه يشهد بأنه جبان أبدا، بل أنه إذا رآه من لا يعرفه شهد له بأنه شجاع بطل ثم ان السلطان سليما قال في نفسه، أنما هذا أمر سماوي أصابه وطالع نحس غريب غير صوابه حتى رمى سلاحه وسلم نفسه، مع أنه قاتل قتال الجبابرة، وإلا لو هرب كانت الدنيا واسعة بين يديه أينما شاء ذهب، وحيث طلب هرب أتم ألتفت إليه وقال له: يا لومانياى، كم نهيناك عن القتال وعن سفك دماء المسلمين، أولا أني أرسلت لك من الشام أن تجعل السكة والخطبة بأسمي، وأنت مقيم على ملك مصر، وأنا ظهرك ومعين لك على سائر ملوك الأرض، فأبيت ذلك وقتلت رسلى، والرسول لا يقتل . فسرنا بعساكرنا لقتالك، ورفعنا الأعلام ونشرنا العساكر على خراب ديارك، فأول مقابلتك في الريدانية هزمناك إلى الصعيد، وأرسلت إليك رسلا إلى الصعيد، وسهم قضاة بلادكم، فلم تقبل الصلح وقتلت القضاة، وتعديت شيم الكرام بقتل الرسل أولا وثانيا .ثم عاتبه عتابا كثيرا فقال له سومانباي، والله أنه لم يكن شيء مما جرى بخاطري ولا بأمرى أبدا ولا برأيي، وإني لما أرسلت إلى من الشام الرسل أكرمتهم، وأمرت بنزولهم في دار الضيافة، وفي نيتي أن أفعل ما جاءوا به، وأرد الجواب كما أمرتنى أفلاقاهم الأمير علان وهم سائرون إلى بيت الضيافة فقتلهم . فلما بلغنى عسر ذلك على، وكذلك الرسل الذين أرسلتهم جرى في حقهم ما جرى في حق غيرهم من غير رضاى، وكل هذا ليس بأمري ولا بإرادتى، وإنما جرت بهم المقادير من الرب

القدير، وحتي تجري الأمور على ذلك على ما كانت من قديم الزمان، بأن دولتنا قد زالت و أدبرت و دولتكم جاءت و أقبلت، وهذا شيء كتبه الله تعالى في القدم، وأجرى به القلم ودارت به الأفلاك وسارت به الكواكب، وما أراده الله فلا مرد له، ولا يغلب الله غالب، تبارك وتعالى رب الأفلاك والكواكب، ولولا ذلك ما قدرت أنت ولا غيرك على أخذ بلادنا، فأنه لو كان بالقوة والشجاعة ما كنتم أقوى منا ولا اشجع، وهأنتم رأيتم كيف فعلنا مع عسكر كم،

وكسرتهم كذا مرة وأما قولكم أنكم كنتم تريدون السكة والخطبة بأسمكم و أن تكونوا روؤس الملوك بخدمة الحرمين الشريفين، فأنا والله ما أخذت السلطنة برغبتى وإنما قومى و عسكرى أختاروني ورغبوا في أن أكون أنا السلطان عليهم لما علموا من زهدي في ذلك المال فلما تقلدت ذلك وجب على أن أرد عنهم وأدافع عن أموالهم وأنفسهم وأولادهم وحريمهم، وأما أنت فإنما قيامك في حظ نفسك لا غير، خصوصا ونحن مسلمون فكيف تستحل قتل المسلمين وترمي عليهم بالمدافع و النيران كيف بك إذا وقفت بين يدي رب العالمين ؛ فما جوابك ؟ وكل ملك وأن تعاظم ملكه فهو الله عبد أصغر، فما أنت وأنا إلا بجملة العبيد .فتعجب السلطان سليم ثم قال له: أنا ما جئت عليكم الا بفتوى علماء الأعصار والأمصار، وأنا كنت متوجها إلى جهاد الرافضة والفجار، فلما بني أميركم النوري وجاء بالعساكر إلى حلب، وأتفق مع الرافضة وأختار أن يمشي إلى مملكتي التي هي مورث آبائى وأجدادى فلما تحققت تركت الرافضة ومشيت إليه، ونظر سلطانكم وعسكر كم قوتنا وقوتكم، و بعد حضوري إلى الشام سمعت إنك عملت سلطانا على الكبشة الأجلاف و أنت لست لها أهلا، والسلطنة لا تكون ولا تليق الأ برجل يكون آباؤه وأجداده سلاطين، وأنت وقايتباي الذي هو أعظمكم والنورى ما أسماء آبائكم ؟ ومن أين لكم السلطنة ؟ ومن أين لكم الأمارة ؟ كلكم أولاد نصارى، وأنتم مماليك بلا عتاقة حتى بقيتم من قلة عقلكم وقلة أدبكم تعملون الرجل منكم سلطانا، ثم تعزلونه وتقتلونه، أي يد لكم حتى تعزلوا وتولوا وتقتلوا، وتطولوا أياديكم على السلاطين، فأنت وقومك كم قتلت من عسكرى، كل مسلم وأبن مسلم، فما جوابك عند الله تعالى . فقال له مسرعا: أن الله تعالى قد أجاز إلى ذلك، قال سبحانه وتعالى في

كتابه العزيز، وهو أصدق القائلين: فمن أعتدى عليكم فأعتدوا عليه بمثل ما أعتدى عليكم اللهم أن المرحوم الملك الأشرفي قانصوه القوري وقع بينك وبينه التنافس، ودخلت الشياطين بينكم، أورمت الأعادي بينك وبينه، وختم الله تعالى له بالشهادة . وستقف أنت وهو بين يدي رب العالمين و أحكم الحاكمين، وأما أنا فليس بيني و بينك عداوة ولا أحد من عسكرك ولا غيرهم فقال له السلطان سليم: والله ما كان قصدى أذيتك ونوهت الرجوع من حلب ولو أطعتني من الأول و جعلت السكة والخطبة بأسمى ما جئت لك ولا دست أرضك فقال له طومان باي: الأنفس التي تربت في العز لا تقبل الذل، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ؟

لا أنتم أفرس أما ولا أشجع منا، وليس في عسكرك من يقايسني في حومة الميدان، و نحن قوم قد خصنا الله سبحانه وتعالى بذلك، ولكن أنا أعرف أن ما عليك أضر من هذين الشيطانين الخائنين، فأنه لو كان فيهما خير لكان لنا فقال السلطان سليم للحاضرين: والله مثل هذا الرجل لا يقتل ولكن أخروه في الترسيم حتى ننظر في أمره فأخذه أياس آغا، وذهب به إلى خيمته وأجلسه بها وأخذ السلطان سليم يتكلم مع الحاضرين في شأنه وإذا بالبشارة قد جاءت من عند الأمير أحمد بن بقر (بقار) بأنه قبض على شار بك الأعور، وأنتم ترسلون من يأخذه فأزداد فرح السلطان سليم بذلك، وقال: من يذهب إليه و يأتي به ؟ فقال الغزالي: على ذلك فقال له: أنت لها يا أبا منصور فقام الغزالي من وقته وخرج وأخد معه مائتين من نقاوة العسكر، فما تم النهارإالا و هم في منية غمر، فوجدوا الأمير أحمد بن بقر (يقار) وأقنا لهم في الأنتظار فلما أجتمع به قانبردى الغزالى وسلم عليه، قال له أحمد بن بقر (بقار) أنزل في الضيافة قال: لا يمكن ذلك، فأن السلطان سليم، نصره الله تعالى، أمرني أن أرجع إليه في يومي هذا، فأسرع لنا بشار بك . وسر معنا إلى السلطان ليكافئك على فعلك ولا تخبر تى كيف مسكته إلا ونحن سائرون فعند ذلك أحضروه، وهو مقيد مزند ووقع بصره على أحمد بن بقر (يقار) وقانبردى الغزالى فقال لهم: الله يخون الخائق فلم يردا له جوابا وركبوه على بغل، وقيدوه من تحت بطنه وطاروا به كما يطير الغراب إذا أخذ البيضة ثم أخذ أحمد بن بقر (بقار) يعكى لقانبردى كيف قبض عليه فأن الأمير شار بك لما خرج من الغابة بعد

أن أيس من السلطان طومان باي وقصد صديقه وحبيبه الأمير أحمد اين بقر (بقار)، فلما وصل إليه أكرمه وزاد في أكرامه وقال له، لا تخف ولا تحزن حيثما وصلت إلى فحكى له الأمير شاربك على ما حصل من السلطان طومان باى، وكيف سلم نفسه لعدوه ور مى سلاحه في البحر المالح، وأن ذلك كان سببا لأنقضاء الدولة ثم دخل الليل فنام الأمير شاربك ليأخذ لنفسه الراحة وكان له عدة أيام وليال لم ينم، ولا طرق النوم عينه، فقام وأطمأن على نفسه فقال أحمد بن بقر (بقار) لأصحابه: خطر عندي شيء أذكره لكم قالوا: وما هو ؟ قال: أن هؤلاء القوم قد زالت دولتهم، حيث أن سلطانهم قد سلم نفسه، وإني أريد أن أفعل كما فعل حسن أبن مرعي، وأجعل لي يدا عند السلطان سليم، وآخذ الشكرانية على غارى فقالوا له: هذا هو الصواب قال: فقمت من ساعتى و دخلت عليه وهو نائم، ومعى نحو عشرة أو عشرين نفسا،

فضربته بالنبوت على رأسه بعد أن نبهته بسرعة فلما رفع رأسه وهو مدهي من الضربة التي في رأسه وقد بطحته أمرت بقية الحاضرين، فوقعوا عليه وكتفوه وقيدوه، وأرسلت لكم على الفور أعلمكم بذلك فشكره على ذلك فأنبردى الغزالى، وقال له: الآن قد أشتفي قلبي من هذا الأعور الخبيث ولا زالوا مجدين السير به حتى أوقفوه بين يدي السلطان سليم، فتأمله، و نظره، فوجده من أكمل الرجال وهيبته ظاهرة عليه، وشجاعته لأبسته، ذو أستكانة رهيبة، ووقار وضخامة وحشمة فأراد السلطان سليم أن يختبر كلامه حتى ينظر عقله فقال له السلطان سليم: وكيف تنظر الدنيا يا شار بك ؟ فقال: كلا شيء فقال له: حيث كانت كل شيء فكيف تقاتل عليها وتحارب فيها ؟ قال: ما قاتلت عليها ولا نافست أحدا فيها، وإنما قاتلت عن مالى و عيالي وعرضي وأولادي، وكتاب الله تعالى ربما كانت ضخامة جثته، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أجازا إلى ذلك، فأما الكتاب فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: فمن أعتدى عليكم فأعتدوا عليه بمثل ما أعتدى عليكم » وقال تعالى: « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وأن الله على نصرهم لقدير » (٩٨) وقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: « من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون عياله فهو شهيد » .. فنحن ما نقاتلكم الا باذن من الله ورسوله وأنت بأي دليل أستحللت دماءنا وأموالنا ؟ فقال السلطان سليم: أولا قد أستفتيت

عليكم وأجاز نى العلماء بذلك فأنه قد بلغني أنكم تقتلون ملوككم، وتأخذون الأمر بالسيف، ولا تقفون على الحدود الشرعية فقال شاربك: أما قتلنا الملوك فهو كلام باطل، فقد أقام المرحوم السلطان الأشرف قايتباى نحو ثلاثين سنة وهو ملك مصر إلى أن مات رحمه الله تعالى: وأما أبنه محمد فقد تعدى الحدود، ولم يقف على حدود الشرع ولهذا قتلناه، و أما الذين تولوا بعده فأنا لم نر فيهم قابلية للملك، فلهذا أقمناهم، فمنهم من حبسناه، ومنهم من قتلناه أتقاء لشره، وقد أخترنا المرحوم الأمير قانصوه الغورى، وجعلناه سلطانا، فأقام إلى أن خرج إليك لأمر أراده الله تعالى في الأزل إلى أن حصل ما حصل، وآخر الحياة الموت، وما نحن باقون من الموت، فقد قال الله تعالى: « إنك ميت وإنهم ميتون» (٩٩) فلما سمع السلطان سليم ذلك الكلام من شار بك أشار بيده، أن أخرجوه فأخرجوه في الترسيم، وأقعدوه قال الراوي: في اليوم الذي جاءوا بالسلطان طومان باي بعد سؤاله وجوابه قبل ما يعطيه الترسيم أشار إليه بيده،

أن أطلقوا المدافع والضر بزانات والبنادق ودقت النوبة السلطانية، ودقت الكسات والتقاريات وأطلقوا المدافع والضر بزانات والبنادق . وكبروا تكبيرات ثلاثة أيام حتى تزلزلت الأرض، وضربوا النوبة من الوزير الأعظم، وسائر الوزراء والباشات والأمراء، و بعد آخرها أشار على ترسيم السلطان طومان باي ثم أمر أن ينادي في جميع مصر بالزينة، فزين الناس جميع مصر والقاهرة، وجميع البيوت والدكاكين، وأسمنا الناس في ذلك وأشيع في سائر أقليم مصر بأن السلطان طومان باي مسكوه بدلالة حسن بن مرعى . وصار الناس منهم من يصدق، ومنهم من الأطراف والفلاحين من يكذب ولما كان في ليلة الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول، وكان السلطان طومان باي قد صلى العشاء، وجلس وهو كثير التفكير زائد التضجر، وزائد الحسرات متتابع العبرات، أخذته سنة من النوم وهو جالس، فإذا هو شخص واقف قدامه وقال له: يا طومان باي، قدم نفسك للرحيل، فقد مضى الكثير والقليل وجاء الوقت المعلوم، فأنتبه من نومك فقد حصل فراقك من أهلك وقومك .فأنتبه مرعو با فزعا، وتعوذ بالله من الشيطان، وقرأ ما تيسر من القرآن، فنزل عليه النوم شيء ثقيل، فأضطجع كأنه ميت أو قتيل " قال: ولم ينزل عليه من النوم طول عمره أثقل من تلك الساعة والسبب في

ذلك أن الروح تعلم بفراقها للبدن فتودعه بطيب الوسق تم آفاق بعد ذلك فوجد نفسه كأنه صب عليه ماء من كثرة العرق، وكان هو الذي أخبر بذلك عن نفسه للقاضي أصيل الطويل، فأنه لم يأته أحد من أهل مصر غيره، و أوصاه أن يغسله ويكفنه بيده وقد فعل ذلك كما أوصاه قال الناقل: ومازال السلطان طومان باى على سهرته إلى الصباح، فلما تباينت الوجوه وإذا بالجاويشية قد جاءوا إليه، والقابوجية وهم مسرعون " وقالوا له: قم، فأن السلطان يطلبك فقام معهم وساروا به إلى أن قرب من خيمة السلطان سليم و أوقفوه، وإذا بقا بوجى آغاسى قد خرج من عند السلطان، وقال:- قد برز أمر السلطان بأن تسيروا به إلى باب زويلة و تصلبوه هناك جاءوا له بالبغلة وأركبوه عليها، وقيدوه من تحت البغلة، ودارت حوله اليكتجرية العساكر من سائر الطوائف وخرجوا به من أوطاق السلطان إلى إنبابه، و نزلوه في مركب، وعدوا به إلى بولاق، ودخلوا به من مرجوش (إلي بين القصرين، وقد أنقلبت الدنيا بالضجيج والبكاء والمياح وكان الواحد من عسكر الروم يجيء إلى الرجل من أهل مصر، ويقول له: هذا الرجل الذي على البقلة هو السلطان طومان باي، أم غيره ؟

فيقول المصري: بل هو هو . وكان ذلك اليوم على أهل المملكة أشأم الأيام، و بكت عليه الأرامل والأيتام . القابوجدة هم الحجاب، كلمة تركية مفردها قابوجى سرجوش أسم شارع يبتدىء من شارع الكلياتي وينتهي عند أولى شارع الشمراني، وقد كان هذا الشارع عمارة كبيرة يجتمع فيها تجار خضر صلب السلطان طومان بان على باب زويلة قال الراوي: فلما وصلوا به إلى باب زويلة وجدوا الحبل مرخيا، فأسرعوا به ونزلوه من على البغلة، وصلبوه على غير مهلة . ثم بعد ذلك أنزلوه وساروا به في نعش إلى قبة السلطان الغورى، فغسله القاضي أصيل الطويل أو كفنه من ثياب أرسلها له السلطان سليم من خاص الموصلي الرفيع، ثم صلى عليه القاضي أيضا كما أوصاه، ودفنوه في فسقية القبة المذكورة وأرسل السلطان سليم ثلاثة أكياس من الفضة تصدقوا بها عليه قال الراوي: أنه حضر الصلاة على السلطان طومان ياى ثم أن الذي فرق الأكياس على الناس فرقها من غير عدد بالنصيب، أعطاه ثلاث حفنات فضة، و أعطى القاضي أصيلا مثل ذلك، وفرق الباقي على الناس من غير عدد بالنصيب -قال: ثم أن السلطان سليم

في الساعة التي أمر فيها بصلب السلطان طومان باي أحضر الأمير شاربك الأعور وأمر بضرب عنقه، فقطعوا رأسه . وجاوت عياله و غلامه الحاج فارس فأستأذنوا في أخذه فأذن لهم فأخذوه وجاءوا به إلى المدرسة البيبرسية وغسلوه، وصلوا عليه، ودفنوه في مسجد من داخل الخوخة التي عند الفرن بالقرب من داخل المدرسة المذكورة كان هذا آخر مدة الجر اكسة، وهو يوم الأحد الحادى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة أثنتين وعشرين وتسعمائة قال المؤلف: الذي وصل إلى علمى من لفظ سيدى محمد أبن السلطان الغورى، أن السلطان سليم لم يكن في نيته قتل السلطان طومان باي، وإنما كان السبب في ذلك خاير بك نائب حلب و قانبردى الغزالى، فإنهما لما رأيا السلطان سليم لم يسهل عليه قتله وصرح لهم في المجلس العام بأن مثل هذا لا يقتل، لأنه لما رأى كلامه مسدودا وهو حق وصدق، وثبت عنده صدقه و ظهر له حاله، ورأى من شجاعته ما يفوق الوصف لم يسهل عليه قتلة وكان يريد أن يأخذه معه إلى بلاد الروم ويبقيه عنده ذخيرة بعد أن يمستحلفه الأيمان المغلظة، وقد ثبت عنده دينه وصلاحه وكان رحمة الله عليه محبوبا لكل من يراه، فلا يراه غريب ولا قريب إلا أحبه، وشهد له بالصلاح المدرسة البيبرسية، وكانت ملحقة بجامع بيبرس الموجود بحارة الجودرية شارع المؤيد فخشى خاير بك على نفسه،

وكذلك قانبردى أن السلطان سليم أن أخذه معه وصار بينهما أتحاد لا يبقى عليهما فأخذوا يدبرون الجميلة و يحسنون للسلطان سليم قتله، وأنه متى أبقى عليه لا يقوم له نظام أبدا، وربما يفسد عليه عسكره، فأنه رجل شجاع و كريم، الدنيا عنده لا قيمة لها أبدا، وخصوصا للأجناد والعساكر فعند ذلك أقتضي رأى خاير بك والغزالي بأن يكتبوا للسلطان ورقة و يرسلوها من غير أن يشعر بها أحد من الوزراء ولا من غيرهم ومن جملة ما كتبوا فيها فليعلم مولانا السلطان أن أهل مصر الذين تشتتوا من الجراكسة لم يصدقوا أن سلطانهم عجز وسلم نفسه وقبض عليه . وكذلك أهل الأقاليم و العربان، وأيضا فليعلم مولانا الختكار، أنك متى أبقيت عليه فقد ضيعت لقبك وسفرك وهلاك عسكرك وأموالك فأنه بمجرد ما تسافر من هذه البلاد لو كان تحت الأرض خرج منها، وأفسد عسكرك بالعطاء، وتندم حيث لا ينفع الندم، فأن أردت

أن تطيعك الممالك والبلاد وتحتوي على جميع البلاد من غير مانع يمنعك عنها ولا مدافع يدفعك عنها عجل بهلاكه، وأرسل أصليه على باب زويلة ليراه الخاص والعام، ويشاع ذلك في سائر البلاد وتيأس الناس من بقائه، وتروق الدنيا وتعلمين على نفسك وتملك الأقليم العظيم الذي ليس له نظير تحت سماء الدنيا ولقد قال بعض الحكماء: عدوك لا تصافيه، وصديقك لا تجافيه وقال آخر: من لم يحسب العواقب ما الدهر له بصاحب فعند ذلك أمر السلطان سليم بصلب لوما تباى، ورمى عنق شاربك، كما تقدم "

صفة السلطان طومان باي، رحمه الله تعالى

كان رحمة الله عليه على ما حكاه عنه سيدي محمد بن المرحوم الغورى والقاضي أصيل الطويل، والأمير رزمك الناشف و غيرهم ممن رآه وعاشره، وعرفه ظاهرا وباطنا، فأتفق الجميع على أنه كان مقداما خبيرا بالحرب ومواقع الطعن والضرب، والدخول في الميدان والخروج منه، لا يرهب الأقيال، ولا يخطر الموت له على بال، وقد ذكرنا ذلك في حروبه ووقائعه، وكان متوسط الطول، ذهبى اللون، واسع الجبين، أسود العين والحاجبين واللحية وكان دينا صالحا خيرا فاضة زائد الأدب والسكون، والخشوع والخضوع، ملازما لزيارة المشايخ، الأحياء منهم والأموات، حتى أنه لما غسله الغاسل وقلعه ما عليه من الثياب وجدوا على بدنه جية صوف حمراء، وأوصى أن يدفنوه بها . ولم يظهر عنه في حياته شيء من الأفعال الردية أبدا، لا تشرب الخمر ولا زنا، ولا فواحش أبدا . وكان قليل الشهامة لا يظهر شيئا مما يفعله أهل التجبر والعنف، وكان الغالب على حاله السكينة والوقار، وكان غاليا على نفسية، رزينا في أحواله، لين الكلمة ذا أنخفاض، كثير الرحمة والشفقة على كل أحد، حتى أنه لما ظهرت منه هذه الفراسة و الشجاعة في قتال السلطان سليم صار الناس يتعجبون منه غاية العجب ولم يكن أحد يظن أنه بهذه الصفة، وكان الذي عمره ما راه إذا رآه لا يشك في أنه عبد صالح، فإن الصلاح والأنس والخيرية كانت ظاهرة عليه وعلى وجهه وقد تقدم في التاريخ أن السلطان سليم ما هان عليه قتله لما رآه وسمع كلامه، وقال له: يا طومان باى، لو كنت أطعتني على مرادي بأن تجعل السكة والخطبة بأسمى ما دخلت لك أرضا ولا بلادا، ولا وقع بيني و بينك حرب أبدا، ولكن لكل شيء سبب حتى جرى القضاء والقدر، وقتل من قتل وسلم من سلم وكانت زوجته خوند بنت قانبردى الغزالي دويدار كبير وتزوجت بعده برجل يقال له أبن الشيخ إبراهيم الكلشتي و بقيت بمصر إلى أن ماتت، ولم يخلف السلطان بلومان ياى أو لادا لا ذكورا ولا اناثا واكثرت فيه الشعراء من المراثي والقصائد، ومضى كأن لم يكن وكأن القاضي أصيل الطويل دائما يحكى عنه الحكايات الغريبة والأمور العجيبة، التي تشهد له بأنه من عباد الله الصالحين . ومات القاضي أصيل في

سنة سبعين وتسعمائة قال الراوي:

قد قدمنا في هذا التاريخ أن السلطان طومان باي توفي في يوم الأحد الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة تسعمائة وأثنتين وعشرين وأنقطع أسمه من الخطبة على منابر معمر في أول سنة أثنتين وعشرين و تسعمائة، وكان من حين ضربت له السكة وأقيمت له الخطية ثلاثة أشهر وخمسة أيام قال المؤرخ: وفي الساعة التي أمر السلطان سليم فيها بصلب طومان باي وقتل الأمير شار بك، أحضر فيها شيخ العرب حسن بن مرعي وأبن عمه شكر، وشيخ العرب أحمد بن يقر (بقار) وخلع عليهم خليا عظاما من أجل خلع الملوك، وأعطى لكل واحد منهم ولاية بلاده اقطاعا له . لا يحمل من مالها الديوان السلطان شيئا ولا درهما واحدا ماداموا في قيد الحياة وأرسلهم إلى بلادهم بعد أن أحسن إليهم إحسانا جزيلا وأكر مهم أكراما عظيما .

تولية الكشاف ومشايخ العربان

قال الراوي: ثم أمر السلطان سليم بتولية الكشاف فولى الأمير جانم على البهنسا والفيوم، و جانم هذا هو الذي تجارب مع السلطان طومان باى وولاهم على ما كانوا عليه في مناصبهم، وأمر أن يكتب في الدواوين لجميع الحكام بعدم المعارضة لجميع أصحاب الأقطاعات والأرزاق والأوقاف والجوامع، وأولاد الأمراء وأمراء الجراكسة الذين تخلفوا، وكل من بيده شيء من الأرزاق هو باق عليه، وجعل لعنة الله ثلاث مرات على من غير أو بدل شيئا من ذلك ففرح الناس بذلك غاية الفح . ثم أن السلطان قال الأمير خاير بك: أريد أن أعلم قدر مال مصر، وما يتجمع منها في كل سنة قال: يا مولانا الخنسكار، ما يعلم ذلك ولا يعرفه إلا القاضي أبو بكر بن الجيعان فأمر بإحضاره فلما حضر قال له خاير بك: مولانا السلطان يريد أن تخبره بما يتجمد من مال مصر في كل سنة على وجه الأختصار فقال له القاضي: في غد ان شاء الله تعالى آتيه بخبر ذلك ثم انصرف، ورفع الدفاتر التي كان قد جاء بها وجاء في ثاني يوم وقد كتب جملة خراج مصر على ظفره فأعجب السلطان ذلك، وقال له: بارك الله فيك، خير القول ما قل ودل ثم أن السلطان أمر بالرحيل من بر انيابة وجاء إلى المقياس و نزل فيه، ومعه جميع أكابر دولته وأعيان أجناده فرجع مار با إلى الموضع الذي جاء منه وفيه سلم التسليم نما ساعه إلا أن رمى بنفسه من فوق الشراريف إلى البحر وإرتمي في التيار وتبعته جماعته بالقارب فحصلوه وهو عائم، فأطلعوه وأنحدروا به، ولم يبلغ مقصوده وأما السلطان سليم، فأنه قام مرعوبا من نومه لما سمع الضجة، وأطل من أعلى القصر و نظره وهو عائم في الماء فأمرهم بالرمي عليه بالبندق، فلم يصبه شيء من ذلك إلى أن وصل الى ساحل بولاق، وبقي مقهورا لأنه لم يبلغ مقصوده وكان في علم الله الذي بقي من عمر السلطان سليم ثلاث سنوات فأنه مات بالقسطنطينية في سنة ست وعشرين وتسعمائة، ودفن بها ومن الغرائب آن مدفنه لا يذهب إليه أحد ولا يزور إلا في النادر، فإنه كان سقا كاللدماء، لا يتوقف في قتل أحد، وأما تربة والده المرحوم السلطان بايزيد، فأنها نيرة عامرة مؤهلة بالناس لا ينقطعون عنه إلا أن كان بعد صلاة العشاء، فأنه كان

عبدا صالحا لا يشك في ولايته وكان بينه و بين السلطان قايتباي مودة عظيمة، ويهدى بعضهم إلى بعض في كل عام،

ويرسلون لبعضهم السلام ويطلبون من بعضهم الدعاء إلى أن توفاهم الله تعالى، تغمدهم الله برحمته ورضوانه وأعجب من ذلك أن خاير بك ملك الأمراء بمصر لما أن أقامه السلطان سليم على مصر إلى أن يموت، فأمر بعمل تربة لنفسه وجعلها في باب الوزير على طريق القلعة، يبس علينا الباشات والصناجق والأغوات عند ذهابهم وأيابهم، فلم يلتفت إليه منهم أحد، ولا يترحم عليه ولا يقرأ له الفاتحة، مع أنها تربة مليحة المنظر، ومع ذلك صل الله عنه قلوب الخلق، لأنه كان سببا في هلاك ألوف مؤلفة من الجر اكسة والأروام والعرب وغيرهم فأن بعض الحذاق من المؤرخين قاسوا وقعة الجراكسة مع السلطان سليم على وقعة تيمورلنك الذى أخربا حلب والشام وقتل أهلها عساكر، فوجدوها قدرها خمس عشرة هوة تقريبا و قال المؤرخ: ثم إن السلطان سليم أشتهى خاطره إلى أن يذهب إلى الإسكندرية و يتفرج عليها، ويحيط بها علما، فرأى مدينتى نوة ورشيد وغيرهما من البلاد، ورأي تلك الأرزاق ورأى الجزات التي كانت في أيام الجياكسة فتعجب من ذلك، وقال: أن هذا الأقليم لا نظير له في كثرة الأرزاق والجزات ثم أنحدر إلى رشيد وأحاط بها علما، ثم طلع إلى البر إلى الأسكندرية وأقام بها ثلاثة أيام، ثم رجع ونزل في المقياس، وبقي كل ليلة ينزل في الذهبية التي عمرها السلطان قانصوه الغورى، وكانت كلها منقوشة بماء الذهب كالأسقفة التي في الغورية وكانت لها بهجة عظيمة، وكان الحاج عبد القادر الأعرج هو الريس الذي يمسك الدفة ويقلع به ويحدر . فأتفق أنه في بعض الليالي أراد السلطان الطلوع من الذهبية إلى المقياس، فلما قاربت الذهبية سلالم المقياس هم السلطان أن يطلع فلم تصل رجله الى درج المقياس، وكاد أن يسقط بين الدرج والذهبية، والحاج عبد القادر واقف يحذائه ليطلعه، فلما رآه هوى الى البحر وكان يتلاحق به، فما حصل الا عنته، فأمسكه وجذ به الى الذهبية من الماء، تساعده عمر السلطان، فأطلعه إلى المركب وقد غاب عن صوابه، وأيقن بالغرق، فلما ردت إليه روحه قال له: تمن على يا عبد القادر فقال: تمنيت أن أكون معرف البحرين فكتب له السلطان أن يأكلها إلى الممات من غير أن يعمل منها إلى الديوان شيئا

مطلقا، وأن يكون مسموع الكلمة منقاد الحرية إلى أن يموت، وأعطاه عطايا الملوك ولا أصبع السلطان أمر بالرحيل من المقياس فأنزله بخاير بك في بيت ترابية الذي على بركة الفيل فأنه ليس له نظير في حسن بنائه ومنظره فأقام بها أياما،

ثم أمر بالرحيل إلى القسطنطينية وكان من أمراء الصناجة أمير سكن في قناطر السباع فهجم عليه طائفة من اليكنجرية، فقتلوه فوصل خبره إلى السلطان، فقبض عليهم وقتلهم عن آخرهم، وكانوا نحو العشرين رجلا ثم أن السلطان سليم قبل الرحيل بيوم خلع على خاير بك نيابة مصر، ولقبه ملك الأمراء، وأبقى عنده خمسة آلاف، يكنجرى، ما عدا العسكر الخيالة، وقال له أعطيتك هذه المملكة اقطاعا لك إلى أن تموت وكذلك فعل بقانيردى الغزالى، فأعطاه الشام أقطاعا له إلى أن يموت ثم أن السلطان أمر خايربك بأن كل من جاءه من الجراكسة الهاربين وطلب منه الأمان أن يقبله ويبقيه على منصبه . وأوصاه وأكد عليه في ضبط البلاد والأنصاف بين العباد ثم أن السلطان أنصرف وأمر بالسفر فلما سمعت الجراكسة بذلك أطمأنت قلوبهم فجاء الأمير رزمك الناشف والأمير بارد بك وسيدي علي بن سودون الدواداري وغيرهم ممن كانوا هار بين مختفين وطلبوا الأمان من خاير بك فأمنهم ذكر أين إياس أن أبن عثمان لما رحل عن مصر ترك بها من عساكره ممن يقيم بالقاهرة عند خاير بك نحو خمسة الآف فارس، ومن الرماة بالبندق الرصاص نمي مائة رام، وقرر من أمرائه شخما يقال له خير الدين باشاه، وجعله تاشب القلعة، فيقيم بها ولا ينزل إلى المدينة وإستقل خاير بك بملك مصر، يتصرف فيها تصرف الملوك و أما سيدي محمد بن الفوري، فأنه أخذه السلطان سليم معه إلى بلاد الروم، وكذلك الأمير قانصوه العادلي، فأن السلطان سليم لما أن جاءه قانصوه العادلي في المركب، وطلع من على شرار يف القياس يريد أن يقتل السلطان سليم كما تقدم، وقد كان السلطان أرسل خلف خاير بك وقال له لا بد أن تأتيني بخير هذا الرجل الذي خاطر بنفسه وجاء في الليل ليقتلني فأستقصى خاير بك الخبر فقيل له: هذا هو الأمير قانصوه العادلى فلما أخبر السلطان به قال له: لابد وأن تأتيني به فقال له: يبرز أمرك بالأمان، فلعل أن يعطيع ويدخل في يدنا . فحلف السلطان أيمانا مغلظة أنه آن قابله بالأمان فعليه أمان الله ورسوله، والخائن يخونه الله تعالى

فأرسل له خاير بك من أستعطف بخاطره، وقال له أن السلطان قد ندم على ما فعل من قتل طومان باي و شار بك وما كان قصد السلطان شيئا من ذلك وإنما عنادهم هو الذي أوجب ذلك، فإنهم لو أطاعوه من الأول وجعلوا السكة والخطبة باسمه لكف عنهم ورجع إلى بلاده وأبقاهم على بلادهم، ولكن جرى القلم بما به الآله حكم، وقد تم الأمر وما بقى لا شر ولا حرب،

والأولى والأحسن أن تقابل السلطان وتأمن على نفسك ومالك وعيالك فلما سمع الأمير قانصوه العادلى ذلك الكلام طاب خاطره للمقابلة وقال في نفسه: أما الموت فلا بد منه، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره . فتوكل على الله وسلم أمره الله وقدم على خاير بك ليلا فلما أجتمع به خاير بك تلقاه بأحسن ملتقى، وقال له: ما بقى كلام وقد مضى ما مضى . وتكلم معه كلاما كثيرا وضمن له من السلطان الأمان، وأعلمه بأن السلطان لا يخالف خاير بك في شيء من ذلك، فأنه كان يعتقد محبته له ولما طلع النهار ركب خاير بك وقانصوه العادلى وذهبا إلى السلطان سليم، فلما وقف بين يديه نظر إليه وتأمله وقال له:- ما أسمك فقال: أسمي قانصوه العادلى فقال: أنت الذي جئتني في الليل وأنا في المقياس ؟ -قال: نعم قال: صف لي كيف صنعت؟ فوصف له جميع ما صنعه فقال له السلطان: لأي شيء فعلت ذلك قال له قانصوه العادلى: أما تدري ما صنعت أنت وما فعلت في سلطاننا، وما أهلكت من عساكرنا، وما أخر بت من بلادنا وديارنا، وما يتمت من أطفالنا وما هتكت من حريمنا، وما أخذت من أموالنا، وما فعلت معنا من فعل لم يشعله أحد من قبلك و نحن مسلمون مؤمنون موحدون حماة الدين، ونقرأ كلام رب العالمين، سنيون، فما ذنبنا ؟ قال له السلطان سليم: يا قانصوه، والله ما كان هذا في خاطري من الأول، ولا كان قصدي شيئا من ذلك أبدا إلا أن ملككم الذي هو قانصوه الغورى لما أرسلت له و كاتبته وأنا ذاهب إلى قتال قزلباش الرافضي أرسل لي جوا يا ناقصاء وأغلظ على فيه، ثم أرسلت له ثانيا لما أن بلغني عنه ما كان يفعله بالناس من المضاررات و القتل في الأمراء والأعيان فقلت له، كف عن ذلك وأنصف الناس من بعضهم، فأن كل من كان خادما للحرمين الشريفين لا يكون إلا عادلا منصفا عاملا بالكتاب والسنة متمسكا بالشريعة، فأرسل لي جوابا بأنه قادم يأشراره، فتوجهت إليه

وجردت عليه، وقد نصرنى الله تعالى عليه، ورمى كيده في نحره، وأنظر كيف ألقى الله تعالى فيكم الفتنة، كيف كنتم تخونون بعضكم وتفسدون فكان ذلك سببا لزوال ملككم، ولكن هذا ليس هو بقدرتى ولا بقدرتكم، ولكن هذا بتقدير الله تعالى، وقد تم الأمر على ذلك، ولكن يا قانصوه قد عطف الله قلبى عليك، وقد أمنتك على نفسك ومالك وعيالك ولا بقى يحصل لك منى أذية أبدا فقبل الأرض بين يديه ودعا للسلطان وأعتذر له بأنه ما جاء له في تلك الليلة إلا لشدة ما حصل له من القهر فيما تقدم

ثم أن السلطان خيره في أن يقيم في مصر معززا مكرما أو يذهب معه إلى بلاده فأختار الذهاب معه محبة في أبن أستاذه سيدي محمد أبن الغورى فأخذه السلطان سليم معه، وأمر عسكره بإكرامه و بقي السلطان في كل يوم يطلبه ويتحدث معه في الطريق و يعجبه كلامه وفصاحته وأجوبته ومعرفته وفضله وشجاعته وكان السلطان سليم في كل حين يأمره بأن يلعب بين يديه بالرمح والسيف وأنداب العرب، ويعجبه ذلك ويقول العسكره أنظروا هل فيكم من أحد يعرف يعمل شيئا من ذلك ؟ فقامت نفس يونس باشا الذي هو الوزير الأعظم فأغلظ في الكلام على السلطان، وقال له من بعض قوله ما الذي فعلته و أخذت البلاد من الجراكسة، ثم أعطيتها لهم ثانيا، وعاديتهم وقاتلتهم ثم صافيتهم، فما هذا الرأي ؟ فلو عرفنا ذلك ما جئنا معك ولا أطعناك في شيء من ذلك فقامت نفس السلطان من هذا الكلام، فأمر بضرب عنقه في الحال وقتل غالب أخصائه تبعا له .

ثم هرب أبن يونس باشا و بعض جماعته إلى مصر فقبض عليهم خاير بك، ثم أرسلهم إلى السلطان سليم فقتل الجميع ولما وصل إلى دمشق خلع على قانبردى الغزالى، وأعطاه الشام أقطاعا إلى أن يموت، لا يؤخذ منه من مالها ولا الدرهم الواحد ثم ستار إلى القسطنطينية، وأمر بالزينة، فأمعنت بلاد الروم في ذلك فأقام بها إلى سنة ست وعشرين وتسعمائة ودفن في مدفنه الذي كان عمره في حال حياته بمدينة القسطنطينية وكانت وفاته في سادس شوال، فكانت مدة سلطنته ثمانى سنين وثمانية أشهر وتسعة أيام ثم أل الملك لولده السلطان سليمان، وكان من الملوك العادلة، رحمة

الله عليه، ومكث في الملك نحو ثمانية وأربعين سنة وشهور لا يختل له نظام أبدا، وكان ملكا كريما عادلا فاضلا، ذا هيبة ووقار قال: فلما بلغ قانبردى الغزالى موت السلطان سليم وقد تولى أبنه السلطان سليمان وهو شاب صغير، طمعت نفسه الخبيثة في أن يتسلطن في الشام، ويعيد الملك إلى الجراكسة كما كان في الأول، ويكون هو السلطان، وتعلقت آماله بالمحال فأخبر أخصاءه بما في نفسه فقالوا له: ليس لنا قدرة على ذلك ونحن فئة قليلة ولكن أرسل إلى خاير بك صاحب مصر، أعلمه بذلك، فإن وافقك على أن تفعل ما قلته فأفعل، وإلا فلا قدرة لك على معسكر الروم وكثرتهم و نيرانهم، فهل نسيت ما تقدم ؟

فقال لهم: إنما كان ذلك من السلطان سليم، وإنما هذا ولد ليس له قدرة على فعل شيء من ذلك، ولا أظنه يتم سنة في الملك، وما علم أنه يقيم في الملك ما يقرب من خمسين سنة ثم أرسل أعلم خاير بك بما في ضميره فأرسل له خاير بك جوابا يحذره أنه لا يفعل شيئا من ذلك ويقول له:- أما يرضيك أقليم الشام تتصرف فيه تصرف الملوك ؟ فإياك ثم إياك أن تتفوه بشيء من ذلك قلم يقبل من خاير بك، وسولت له نفسه الخبيثة بأن يتسلطن وأرسل إلى خاير بك ثانيا يقول له: أن لم تطعني على ذلك وإلا جردت عليك وحار بتك، أما بى راما بك فلما رى خاير بك منه الجد، أرسل يخادعه في الكلام ويقول له: أن كان ولا بد وأنت معول على ذلك أذهب إلى حلب وخذها، فأن ملكتها فأنا مساعد لك فيما تقدم و موافق أنك على ما تقول ولما جاء الجواب له بذلك فرح به وأرسل خلف سيدي محمد أبن الأمير قرقماش، وقال له:- أنظر كتابة الأمير خاير بك ملك الأمراء الذي تقول أنه لا يوافق على شيء من ذلك فقال له سيدي محمد: والله إني لم أصدق شيئا من ذلك، وإنما خادعك بهذا الكلام لما رأى منك الجد، ولكن إن قبلت رأيى أترك هذا الأمر عن بالك، وأقعد في حالك فقال له الغزالي: الذي ظهر لي أنك رجل أبن ناس وزيزة مر بي في الهلال، اقع أنت في الشام

وأحفظ لي البلد إلى أن أرجع إليك وتنظر الرجال فقال له: هانا قاعد لك هنا، وأذهب حتى أنظر كيف تصنع، وما أخوفني عليك ثم أن الغزالي جرد على مدينة حلب، ولفق له

عساكر من كل جنس من عرب ومن جركس، و من كرد و من دروز ومن سفل العالم، وممن لا خير فيه وخرج من دمشق في ضجة عظيمة من شرار الناس وممه لا يرتجى خيره ولما وصلت الأخبار إلى نائب حلب، وكان أميرا من صناجة السلطان سليم روميا لا قدرة له على تلك الجموع فما ساعه إلا أن كتب بذلك كتابا، وأرسله مع عشرة جاويشية إلى السلطان سليمان، بأن يرسل له عسكرا يرد الغزالي، وإلا أخذت حلب من يدي، وهانا معاصر إلى أن يريد الله بأمر يريده فعند ذلك أمن السلطان سليمان إياس باشا الذي كان أغاة اليكنجرية مع السلطان سليم لما أخذ مصر من المراكسة وأيضا له معرفة تامة بالغزالي وخاير بك من ذلك العهد فخرج من مدينة أسلانبول قاصدا الى مدينة حلب وأخذ خمسة آلاف من اليكنجرية وعشرة آلاف من الأسباهية ومن الشرابزانات وآلات الحرب وشيئا يفوق الوصف هذا ما كان من يأمر إياس باشا وأما الغزالي،

فإنه كان قبل خروجه من دمشق الشام منع الدعاء للسلطان سليمان في الخطبة، وأمر بالدعاء له وأيضا جعل السكة بأسمه، وتسلطن، وأطاعته العساكر وأهل الشام، وخطب له على منابرها، وأمر بالزينة فزينت له زينة لم يعهد مثلها مدة سبعة أيام ثم أمر بالتبريزر إلى مدينة حلب كما تقدم ولما وصل إليها، وجد آبوا بها قد قفلت وطلعت الناس على سورها، فلما قرب منها رموا عليه بالمدافع والأحجار فأمر بالأقامة لأجل أن يحاصرها فمكث ثلاثة أشهر، ولم يقدر على أخذها، فدخل عليه الشتاء وأشتد البرد، فما أوسمه إلا الرحيل عنها، و توى آنه أن جاء الصيف يرجع إليها ولا يرجع حتى يأخذها طيبة أو غصيبة ثم أمر بالرحيل، فأخذ عساكر حلب وأهلها في شتمه وسبه ولعنه، وهو يسد، معهم ويسمع كلامهم وصياحهم وضحكهم عليه، فرجع مخزيا مشتوما مطرودا فلما وصل إلى دمشق، تفرقت تلك الجموع إلى بلادهم وقد دخل عليهم الشتاء، وقاسوا من البرد والمطر ما لا يوصف وأما الغزالي فأنه ضاق صدره، وجاءته الأخبار بأن باشة حلب قد كاتب السلطان سليمان وأخبره بما فعلت وأن عساكر الروم قد قدمت عليك مع إياس أغا، وها هم منتظرون ذهاب الشتاء ودخول الصيف و يأتون إليك في عسكر بسد الأرض، فأنظر كيف تصنع، فأن أمكنك الهروب فاهرب وكان المرسل له هذا الخبر رجلا من أصحابه من أهل حلب، وسفه رآيه . فعند ذلك أضطرب حال الغزالي

و ندم على ما فعل حيث لم ينفعه الندم، وكتم ذلك في سره، وبقي حيران في نفسه كيف يصنع، أن هرب ما يسهل عليه ترك البلاد، وأن أقام

لا قدرة له على ملاقاة الروم، وقد تشتتت منه تلك الجموع التي كان جمعها وذهبت إلى بلادها. وأيضا أنه كان قبل ذلك لما أراد أن يتسلطن دبر حيلة وطلعت بيده، وهو أنه أمر بعمل مولد، و باشر في عمله وأمر بأن يحضره جميع عسكر دمشق الذين كانوا مع السلطان سليم، وأبقاهم في دمشق مع قانبردى الغزالى من السناجق والأغوات واليكنجرية وغيرهم فلما أجتمعوا عنده، مد لهم سماطا طويلا لم يعمل مثله أحد، وجلست الأعيان في أعلى السماط، ثم من دونهم بالترتيب إلى آخر السماط، فألتهوا في الأكل وكانت ماليكه وأتباعه واقفين خلف الذين يأكلون على السماط وكل واحد منهم سيفه تحت ثيابه، و هم يتعاطون الخدمة فعند ذلك أشار لهم، فحطموا أيديهم في الأروام الذين على السماط فما شعروا إلا ورؤوسهم طائرة،

فوقعت رؤوسهم في الطعام، فلم ينج منهم أحد، فقتلوهم أجمعين وصار الطعام كله رؤوسا، وتلف الطعام من كثرة الدماء والقتلى فأمر باخراجهم ورميهم خارج دمشق، فأكلتهم الذئاب والحدأة والغربان ولما فعل ذلك، صفت له دمشق ولم يبق عنده من يعارضه فيما يفعله، فعند ذلك تسلطن كما تقدم، وما زال في هم رغم حتى فرغ الشتاء ودفئت الدنيا، فجاءته الأخبار بأن إياس باشا قادم عنيك في عساكر لا تحصى فإزداد غما الى غمه، وأمر بالخروج إلى ملاقاة العسكر، وقال أما ببختى وأما ببختهم، ولكنه ندم على ما فعل غاية الندم حيث لا ينفعه الندم وذلك من الحمق، فأن الأحمق يسعى في هلاك نفسه و هو لا يشعر وأما إياس باشا فأنه لما وصل إلى حلب، خرج إليه نائب حلب وقابله و أخبره بما فعل من أقفال أبواب البلد، وأنه رمي على الغزالي من أعلى السور، وأنه أقام محاصرا لهم ثلاثة أشهر، ثم دخل عليه الشتاء فرجع إلى دمشق وذكر له جميع ما وقع أفشكره إياس باشا على ما فعل، وخلع عليه وعلى أغاة اليكندرية الذين كانوا بحلب، ثم قصد دمشق والتم عليه عساكر كثيرة لا تحصى، فأنه بقى كلما دخل مدينة أخذ منها جماعة، فصار في جيش عظيم فلما وصل إلى ظاهر دمشق، أرسل

جاريشا بكتاب إلى قاتبردي الغزالى بأن يتأهب للحرب والقتال والطعن والنزال وينظر ما تفعله الأبطال، وأخذ يوبخه ويحط في ذلك ومن جملة ما قال له فيه: أنه لو كان فيك خير كان الأبناء جنسك فالذي ما فيه خير لجنسه كيف يكون فيه خير الغير جنسه، يا خائن يا قاجر يا غدار يا مكار . و أخذ يسبه سبا مبرحا، ويسود وجهه ويلعنه ويقول له: إنما هذه نيتك الخبيثة أنقلبت عليك فسوف ترى صنع الله في غد أن شاء الله تعالى فلما وصل ذلك الكتاب للغزالى وقرأه، أزداد غما على غمه، وضاق صدره ولم ينم تلك الليلة ولا طرق النوم

جفنه، و أحس بزوال النعمة عنه، ولم تبق له شيلة يحتال فيا ساعه إلا أن تأهب للقتال، أما له وأما عليه، وقد تحقق آنه لا خلاص له من ذلك، وأنه قد خسر خسراناً مبينا، ولكنه لم يظهر شيئا من ذلك لأحد من خلق الله تعالى وكتم ما عنده ولما طلع النهار، أمر بأقامة الحرب وقد صفت عساكره ودق طبله ووقف بنفسه يرتب الميمنة والميسرة، فلما تم ذلك وإذا بعساكر الروم قد أقبلت صفوفا سفوفا،

ووقف إياس باشا والتحم القتال فأمى إياس باشا الرماة أنهم لا يرمون حتى يأذن لهم في الرمى نعمل الغزالي على عسكر الروم حملة واحدة فشتتهم بها ومزقهم كل ممزق، وصار يقاتل قتال من أيس من الحياة فقتل من الروم مقتلة عظيمة فلما عاين إياس باشا ذلك، أمر الرماة بأن تر مى بالبندق والمدافع والضرابزانات فما شعر الغزالي إلا والدنيا قد أنقلبت والقيامة قد قامت وأنطبق الجو من الدخان والغبار فما كانت إلا ساعة واحدة، وقد ذهبت تلك العساكر والجمع وما سلم منهم إلا طويل العمر، وبقي الغزالي واقفا لا يعرف كيف يصنع ولا أين يذهب، فألتفت فوجد صبنجقه واقفا ليس عنده أحد، فجاء إلى حامل المنجق وكان شبا شجاعا أسمه على بالي، رباه الغزالي عنده من صغره، ولكنه ليس جركسيا، فلما رآه الغزالى شجاعا قر بة إليه حتى جعله حامل لوائه وكان يصرخ ويقول أن عليا هذا عندي أعز من ولدي فلما رآه واقفا والصنجق في يده قال له يا ولدي إني متى أنت تقف و عساكر نأ كلهم هلكوا وتشتتوا ؟ قال: وإلى أين أذهب ؟ روحى قبل روحك، لا أفارقك حتى تذهب روحى فشكره الغزالى على ذلك، وقال

له: يا ولدي ما بقى لنا غير الفرار من هذا العسكر الجرار فقال له: والله يا سيدى ما عملت فينا خيرا، وما ضركلو كنت باقيا على ما أنت عليه آمنا على نفسك، وأن كنت سلطانا مخفيا سعيت في هلاك نفسك وأهلكتنا في جرتك قال ما كنت أظن أن الأمر كذلك، وأن العساكر تفرمني وينقلب الأمير . فقال له على أن العارفين قالوا من لم يحسب العواقب ما الدهر له بصاحب فقال: يا ولدي مادام هذا الدخان والغبار قائما أقلع هذا المنجق من على رمحه وضعه في مخلاته، وأرم الرمح و أدفن المخلاة في هذا الكوم العالى ودعنا نزل عن خيلنا ونقلع لبسنا ونفير حالتنا، ونتجو بأنفسنا، فإذا رأونا لا يعرفوننا ثم أن الغزالى نزل عن فرسه، وخلع ما عليه من اللبس والبولاد الذي لا نظير له، ودفنه في التراب وبقي بطان القميص ورأسه مكشوفة كأنه قرندلي، أذا رآه من لا يعرفها لا يعرفه، وليط وجهه بالتراب، وصار كأنه كان مدفونا في

التراب وطلع وأما على بالي فلما رأى ذلك قال له: والله يا سيدى

ليس عندك من الرأى شيء، فأننا لو كنا على ظهور خيلنا كنا هربنا وحمينا أنفسنا حتى نخلص من محل الحرب، ثم ننزل على بعد ونختفي في مكان لا يعرفنا أحد، وأما نزولنا في محل المعركة فلا فائدة فيه .

ثم أن عليا ركب فرسه ثانيا، وأخذ عدته وهم بالهروب فقال له الغزالى هكذا يا على تذهب وتخليتي للعدو ؟ فقال له: وما الذي أصنع ؟ أنا قلت لك أفعل بنا هذه الفعال القبيحة التي لا يفعلها إلا المجانين ؟ فبينما هم في هذه الحالة إلا وقد أنجلى الدخان يسيرا ونظر الناس بعضهم بعضا، وإذا بمنادى إياس باشا ينادى كل من جاءنا بالغزالي أو برأسه أو دلنا عليه أو على مكانه أعطيناه جميع ما يتمناه فدكس على بفرسه إلى نحو الميدان، وإذا بهم طائفة من السلحدارية واليكنجرية فلما وصل إليهم قال لهم: أنا أدلكم على موضعه فقالوا له: أين هو ؟ فقال لهم: أنا أعرف محله، وهو بالقرب منكم ولكن ما أدلكم عليه حتى تعاهدون على ما أريد قالوا له: لك ذلك قال: أريد أن أكون أمير سنجق، فأتي أنا حامل صنجقه وأنا من أولاد الشام، ونحن طائعون للسلطان سليمان باطنا، وكذلك سيدي محمد بن قرقماس فقال له الأغا: لك منا جميع ما تريد أن دللتنا

عليه فقال لهم: أتبعونى وقصدوا نحو الغزالي وهو واقف يبرم كما تبرم القرندلية، وهو يقول: وهو قصده بذلك حيلة منه لئلا يعرفوه فقال لهم على: هو هذا القرندلى، فهو الغزالى فقالوا له: أنت تتمسخر بنا يا فاعل يا تارك وأخذوا يشتمونه و يسبونه، وهموا بقتله فقال لهم: أمهلوا على، أنا بين ايديكم أن لم يكن هو الغزالي . وإلا فرأسي عوض كلامى فقالوا له أن الغزالي كان بآلة الحرب من الحديد -قال: نعم وحكى لهم ما فعل فجاءوا إليه و أحاطوا به ومسكوه، وهو يهدر كالمجذوب ويقول: هو . . مو . . هو فقالوا له: أنت الغزالي ؟ فقال لهم بعد أن قبضوا عليه وأرادوا قتله: أنا رجل درويش عريان ومن أين لي أن أكون كالغزالي فتحيروا في أمره، وعلى بالي يحلف ويقول: لا تصدقوه ولكن تعالوا أنا أدلكم على لبسه و فرسه و سلاحه، أتهم على ذلك الكوم العالى فأخذهم وذهب بهم إليه، وإذا بملبو سه كله وصنجقه مدفونان في التراب نطلعوه ورأوه فعرفوه ورأوا فرسه عند ذلك المكان وهو ينكر ويقول: أنا رجل در ويش، كيف تصدقوا هذا الكذاب، أنظروا إلى حالي فلما تعيروا في أمره قال لهم: أنا أقطع رأسه وأذهب بها إلى إياس باشا فأنه يعرفه، فإذا لم يكن هو فرأسي عوض عن رأسه و جذب سيفه وضرب رأسه فأطاحها، وأخذها في مخلاته: وقال أنا و أنتم إلى إياس باشا وأخذوا معهم ملبوسه وفرسه فلما وقفوا بين يدى إياس باشا تقدم ذلك الأغا،

و آخبرإياس باشا بما وقع فقال لهم هاتوا الرأس حتى أنظره، فأنا أعرفه غاية المعرفة، فوضعوه بين يديه، فتأمله، وقال هذا رأس الغزالي بلا شك ثم قال لهم: أين الذي دلكم عليه؟ فقالوا له: هذا الرجل فسأله عن حاله فأخبره بجميع ما فعل الغزالي فعند ذلك خلع عليه خلعة عظيمة، وعمله أمير صنجق وكذلك سيدي محمد بن قرقماس ومن أغرب ما وقع أنه في يوم قتل الغزالى وقف رجل على باب الجامع الأزهر، ونادى بأعلى صوته: يا جماعة أن الغزالى قتل اليوم فإذا لم تصدقوني فأكتبوا تاريخ هذا اليوم فكان كما قال .

تاريخ قطع رأس الغزالي الخائن

فما مضى إلا أيام قليلة حتى جاءت الأولاقية من عند ياس باشا الى خاير بك ملك مصر بما وقع، وإن الغزالي قطعت رأسه في اليوم الفلاني وكان العاشر من ذي الحجة الحرام سنة سبع وعشرين وتسعمائة ثم إن إياس باشا أرسل برأس الغزالى إلى السلطان سليمان مع الأولاقية، فزينت البلاد وحمل السرور للسلطان ثم أرسل السلطان الجواب لا بأس باشا وشكره على ما فعل وأمره بألا يمكن العسكر من إيذاء أحد من الرعايا، ويأمره بأقامة الحدود على الوجه الشرعي وأن ينصف في أحكامه إلى آخره . وأما خاير بك، فأنه لما بلغه قتل الغزالي تكدر عيشه وأوصى وأعتق مماليكه فقالت زوجته تعيش رأسك وتبقى ١٠ من ذي الحجة سنة ٢٧ نوفمبر ١٩٧١ وكانت تسمي خوند مصر بيك وكان قد تزوجها قبله الملك الناصر محمد بن قايتباي، وبقيت عازبة مدة سلطنة الغوري إلى أن تولي خاير بك فتزوجها فأنه لم يكن في النساء أسخي منها في عصرها وكانت خازندار تها تسمى دولتباى وكانت خوند مصر بيك كاتبة فقال لها: أن بين عمري وعمره مدة سنة فكان كذلك فيما تم العام إلا وقد مات خاير بك يفرخ الحجم ودفن في تربته التي عمرها في طريق القلعة بالقرب من باب الوزير وهي المعروفة الآن بالخير بكية . وكانت الناس تسمع صراخه في القبر وهو يصيح حتى ضبت الناس من ذلك: وكان موته عبرة لمن أعتبر، وهكذا الدنيا تفعل بأهلها فهنيئا لمن أعرض عنها، وقنع منها باليسير وترك الكثير عن باله فتبا لها من دنيا غدارة، وكفى فما لها قوله سبحانه و تعالى: « فلا تغرنكم الحياة الدنيا » ..(الآية) خوند أو خوندة آمرأة أو سنينة وجمعها خونداث: وهي جارية الملك التي ولدت منه، ويقال دولي عقد، تزويج جارية السلطان أم بنته ونساء مصر يطلقتها على زوجة الملك فيقال حارث خوند الكبرى والعادة القديمة أنه تكون الفرندات أربعا خوند الخوندات ولى خوند الكبرى وخونة الثانية والثالثة والرابعة: وكذلك تطلق على أخت زوجة الملك، وتطلق على السيد الأمير، وهي كلمة فارسية في الطاعون باب الوزير، أحد أبواب القراقة تحت القلعة، وقد، سعى به الشارع الذي يبدأ من نهاية شارع التبانة من عند جامع إبراهيم أغا إلى تبلى جامع الأمير سيف الدين قال

الراوي . ثم أن السلطان سليمان رحمة الله عليه شرع في التوجه إلى الغزو في سبيل الله تعالى الأخذ بلاد روس فأنه قد كان قوي بأسهم وزاد فسادهم، وأرتفعت رؤوسهم بعد موت السلطان سليم،

وفرحوا بموته فرحا شديدا، وطمعوا في أخذ بلاد المسلمين، وحدثتهم نفوسهم الخبيثة بما لا قدرة لهم عليه، وظنوا أن ولده السلطان سليمان لا قدرة له على حرب ولا غيره، ولد صغير، فأظهر الله سبحانه وتعالى سر نصرة الأسلام، وجعله صاحب الكلام والعدل والإنصاف وكان قد بلغ السلطان سليمان بأن عند خاير آثر من آثار النبي صلى الله عليه وسلم، فأرسله له وأرسل له بعضا من ثياب، فلم يجدوا السلطان سليمان بالقسطنطينية وكان قد توجه في الغزاة إلى بلاد رودس فقاتلهم وضايقهم، وعجز ملك رودست قال الراوي: لما عجز ملك رودس عن محاربة السلطان، كتب ورقة وربطها في عود نشاب، ورمى بالقوس، فوقعت في وطاق الوزير، مضمونها، أن سلطان رودس يريد في المخطوطة رقم 714 جزيرة رودس أو في تاريخ أين إياس جزيرة رودسى الأمان لنفسنه وماله، فرأوا النشابة وأوصلوها إلى الوزير، والوزير دخلها للسلطان، فلما قرأها قال للوزير: أرسل إليه أن كان صحيحا يريد الأمان فقد أعطيته الأمان، وأخذ البلاد ووقع الصلح، وهي إلى الآن مع آل عثمان قال الراوي: لما مات خاير بك، أرسل السلطان إلى مصر باشا يسمى قاسم باشا، وكان مسالاً وكان عنده لين في حكمه، وكان كاشف الفيوم والبهنسا جانم المذكور سابقا، و كاشف المحلة إينان الطويل، ولاه المحلة خاير بك بعد المنجق الذي ولاه السلطان سليم - ثم أن جانم وإينال الطويل نويا على العصيان وغزوا على حسن بن مرعي وأبن عمه شكر، وقتلوهما لكونهما غمز وا على طومان باي، وأنهما يأخذان البلاد من العثامنة وقالا: قد مات الفاتح - وهو السلطان سليم - وهذا ولده السلطان سليمان ليس له قدرة على المحارية ولو جاءنا حار بناه فجمع كل منهما ما قدر عليه من الأشقياء وأوباش الرجال وساروا إلى الشرقية يعكسوا فيها، فبلغ خبر هم إلى مصطفى وكان باشة مصر ذلك الزمن . فجمع الصناجق والأغوات والعساكر، وأراد أن يجرد عليهم بنفسه فطلع القاضي موسي بن بركات إلى الباشا وقال له: يا مولانا الوزير، لا تحمل هما بسبب هؤلاء، أكتب إلى كتابا بالأمان وأنا أتى بهم إليك

أن شاء الله فكتبت له كتابا بالأمان وأقسم عليه بالأقسام موسى بنبركات وتوجه إليهم، وأجتمع باينال، وقال له: - ما جاء بك يا قاضي ؟ فقال له: جئت في أمر صغير يسير وأخذ يخادعه بالكلام، وقال له سأذكر لك يا جنت فقال إينال: أنا أعرف ما جئت فيه، وهو أنك تريد الصلح بيننا وبين الباشا، وبعد أن يقابلنا يقتلنا، وتصير أنت مند كورا عنده يا كلب يا أبن الكلب :فأخذ يلين الكلام لما أن أغلظ عليه إينال

فقال له: أن الباشا حلف لكم بأنه لا يضركم فقال: تكذب وازداد غيظة .وقال: يا أسود، جئت إلينا تعسعس وراءنا، دايروة

كنافه . فأداروه وطلع من الخيمة حافيا مكشوف الرأس، وضرب ضربة أطاح رأسه

ثم أجتمع معهم الجراكسة الأشقياء، وجاء الخير إلى الباشا بأن إينال و جانم قطعوا رأس موسى بن بركات، وأن الأشقياء مجتمعون للحرب - فلما بلغ الباشا ذلك أمر بخروج العسكر فأول من خرج موسى أغا آغاة الأنكشارية والأغوات الثلاثة، وأرسل معهم زر بطانات كثير، ثم أنه أبطل بلك الجراكسة لم يرسله معهم فلما أقبلوا على العدو أرسلوا يقولون له: في غد الحرب . فلما أصبحوا، بادروا للحرب والقتال والطعن والجدال إلى نصف النهار، فجرت الجراكسة من كثرة النيران، وأفحش جانم في القتل، إلا وقد عثر جواده، فأنكسرته رجله فوقع من على ظهره، وطلب غيره فلم يأته أحد قحطت العساكر عليه، وقطعوا رأسه وعلقوها على رمح، ونادوا عليها، جانم قتل وهذه رأسه فلما سمع إينال ذلك هرب إلى نحو غزة وقطعوا رأس السنجق الذي يستحق قطعها، وتركوا الهيوشة، ورجعوا إلى مصر منصورين مؤيدين ثم أنهم لما دخلوا مصر أمر الباشا بتعليق رأس جانم على باب زويلة، ثم أرسلها للسلطان سليمان . قال الراوي، وكان الوزير الأعظم أحمد باشا، فعزله السلطان وولى إبراهيم باشا ثم أن أحمد باشا جلس في بيته وهو غضبان إلى أن أرسله إلى مصر باشا، فعمى على السلطان وتنمرد، وقتل في أيامه بقية الجراكسة، وحرقهم بالنار، طلعوا المدافع من السرداب الذي بمصر القديمة وقتلهم الأنكشارية وكانت المبايعة له في بر الجيزة فقفلوا عليه باب القلعة وحاصرهم إلى أن غلبهم وأهلكهم أجمعين، وصادر جميع الخواجات والتجار وصار يضر

بهم بمقارع وكسارات وكان أحمد بن المرقبان دفتردار، وقعد شوية أيام وشنقه وحبس جانم الحمزاوي وظلم العباد ففي ذات يوم نزل الحمام الذي بالمراغة، وكان هناك صنجق يدع محمد بيك، فليس عدته، وأخذ مماليكه وصار ينادي: الله ينصر السلطان سليمان، من جاءنا عليه الأمان حتى التم عليه عسكر جرار إلى أن أوقفوا على باب الحمام، فطلع من السطوح إلى المستوقد، ونفذ إلى القلعة فلما أن كان الليل، رحل بمماليكه إلى عند أحمد بن بقر (يقار) فلما أصبح الصباح جاءت العسكر إلى القلعة فوجدوها خالية فعند

ذلك قالوا: نتبع أثره فسألوا بعض من رآه وهو رايح فقالوا لهم: نزل من على عرب اليسار فأستمروا يقصون جرته ويسألون، والركب الكثير ما تخفي جرته، حتى وقعوا به هو ومماليكه، وجميع من معه ثم أنهم مسكوه، وقطعوا رأسه، وأرسلوها للسلطان من وقتها وساعتها قال الراوي: هذا ما كان من أمر أحمد باشا وأما السلطان سليمان، فأنه لا علم بعصيانه جهز له إبراهيم باشا الوزير إلى مصر بعساكر ملأت الأرض من

كل جنس، فأخذ معه من الأعيان أغاة الأنكشارية وأحمد أغا والأمير مصطفى، وجاء معهم خلق كثير، فصادفوا الرأس في الطريق، ففرح إبراهيم باشا بذلك وقال: لابد أن أذهب إلى مصر، وأنظرها وأدبر أمرها نجد في السير إلى أن وصل إلى الشام فلاقاه سليمان باشا باشة الشام وكان سليمان باشا هذا ولاه إياس أغا موضع الغزالي - ملاقاة حسنة، وقدم له تقدمة مليحة وحظي منه إبراهيم باشا، فقال له: أمض معي إلى مصر أقيمك فيها باشا، فأن معي من الختكار خطا همايونيا أختار من أريد فجاء سليمان باشا إلى مصر صحبته فلما دخل إبراهيم باشا الوزير إلى مصر ولي سليمان باشا باشة مصر، وأجلسه ورتب الأمور كما أراد، وهو الذي قرر الجوالي وجعلها موقوفة على العلماء، وأقر سليمان باشا على مصر، و أخذ الحمزاوي معه وسبب أخذ الحمزاوي هو أنه كان تكلم مع إبراهيم باشا الوزير بسبب مال مصر الذي يتجمد كل عام ما أفعل به ؟. فأن السلطان سليم لما أخذ مصر من الجراكسة، قال له خاير بك: - المال الذي يتجمد، ما أفعل به ؟ قال: أعط العساكر جوامهم بالتمام من غير إسراف وما بقى ضعه في بيت

المال للمسلمين لوقت الأحتياج إليه و فبقى الأمر على ذلك إلى أن جاء إبراهيم باشا كما وأجتمع إبراهيم بالسلطان و أخبره بجميع ما فعل، وحسن أله عبارة بأن غالب مال مصر ضائع، يتصرف فيه الكتبة، وسأله ضبط هذا المال وأرساله في كل عام للصرف منه على العساكر، وفي المصالح والغزاة وغيرها فأمر السلطان سليمان أن يكون جانم الحمزاوي دفتر دار على ذلك، من غير ظلم الأحد ويضبطه على وجه الانصاف فأول سنة ضبطها جاءت سبعة أحمال، وفي ثاني سنة جاءت ثمانية أحمال، وبقيت على ذلك إلى أن سافر سليمان باشا إلى الهند وتولي خسرو باشا، فأرسلها أثني عشر حملا بزيادة أربعة أحمال، فلم يقبل السلطان سليمان الأربعة أحمال، وأبقاها على باب الديوان مدة شهر خشية من أن تكون قد أخذت من أربابها بالظلم و أمر بإحضار سليمان باشا وخسرو باشا

وقال له:- لابد أن تخبروني هذه الأربعة من أين جاءت ؟ فقال خسرو باشا: سليمان باشا تهاون في ضبط المال فلم ينم، وأنا قد أهتممت في ضبطه فنما معي فقال السلطان: قد حصل في هذا المال الشك، فأنا لا أدخله في خزانتيا نصرف على غير ما أدخل به إلى القسطنطينية قال: فلما رجع سليمان من الهند رجع خسرو باشا وأقام سليمان عدة سنين ثم عزل وتولى مصر داود باشا إلى أن مات بها ثم تولى بعده محمد باشا قريب السلطان ثم عزل عنها ثم تولى بعده على باشا الطواشي، وكان من أهل الدين في الصلاح فأقام بها إلى أن مات، ودفن بالقرافة، بالقرب من تربة القاضي بكار، رحمهم الله رحمة بالغة، فإنه كان من أهل الله تعالى والصلاح شاهد له . وهذا آخر ما أنتهى من وقعة السلطان الغورى مع السلطان سليم، وكان الفراغ من كتابة هذه السيرة يوم السبت سادس عشر صفر الخير من شهور سنة خمس وستين وألف (1090 م) والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الفهرس

و اقعة السلطان الغوري 2

نواب البلاد التي كانت في حكمهم 3

قطع رأس السلطان الغورى 16

كتابة مرسوم إلى السلطان طومان باي 24

خروج السلطان سليم إلى مصر 26

كتابة مرسوم إلى السلطان طومان باي 30

التقاء طومان باي مع جانم السيفي 39

تعدية السلطان سليم إلى بر الجيزة 60

صفة السلطان طومان باي، رحمه الله تعالى 97

تولية الكشاف ومشايخ العربان 99

تاريخ قطع رأس الغزالي الخائن 110

الفهرس 115